كراسات منارات 1

فلسطين
في التاريخ القديم
نظرة موجزة

يوسف سامي اليوسف

منارات

فلسطين
في التاريخ القديم

الطبعة الاولى
١٩٨٩

جميع الحقوق محفوظة
دار منارات للنشر
ص.ب: ٩٢٥٠٦٢
هاتف: ٦٦١٣٢٨
عمان.الاردن

تصميم الغلاف: «منارات»
خطوط الغلاف: زهير أبوشايب

طُبع في شركة الشرق الأوسط للطباعة
ص.ب ١٥٢٨٦ ـ تلفون ٨٩٤٩٤٠/٨٩٤٩٤١

كرّاس منارات 1

فلسطين
في التاريخ القديم
نظرة موجزة

يوسُف سامي اليوسُف

منارات

٣٢٢٠٢ر٥ع٩
يوس يوسف سامي اليوسف.
فلسطين في التاريخ القديم/يوسف سامي اليوسف.ـ
عمان: دار منارات للنشر، ١٩٨٩.
٧٢ ص.
ر.أ. ١٣٤/٢/١٩٨٩.
١ـ فلسطين ـ تاريخ ـ عصر قديم أ ـ العنوان.
(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

فلسطين في التاريخ القديم

نظرة موجزة

أولا ـ تمهيد

■ حين تدرس تاريخ كيان من الكيانات البشرية فانك تحاول ان تعرف كيف عبر ذلك الكيان عن نفسه في الزمن التاريخي الراضخ لمبدأ القبل والبعد، أو للقانون الذي يشد السابق واللاحق في سلسلة مترابطة.

ومن شأن مثل هذه الفكرة ان تجرك بالضرورة الى فكرة اخرى فحواها ان كل علم بالتاريخ هو العلم بالروابط التي تلحم الاجزاء في الكلية الواحدة والمجمل المتماسك. حقا ان العلم بالواقع هو العلم بالمتعدد الذي لا يعرف الفصال الا بقدر ما يعرف الوصال.

ووقوفا على هذه الارضية، فانك لا محيد لك من الاصطدام بالغياب الكبير للوحدة بما هي تماسك وتعاقب متسلسل حين تحاول الاقتراب من التاريخ الفلسطيني القديم. فنحن، في جوهر الامر، لا نعرف كيف كانت الصلات والاتصالات بين المدن الفلسطينية، منذ نشأتها في الالف الخامس وحتى وقت متأخر.

اذن، ليس في الميسور البتة ان يتمكن أحد هذه الايام من كتابة تاريخ متماسك ومتعاقب لفلسطين، أقصد تاريخا يكتب على غرار تاريخ مصر،

أو أي تاريخ آخر نأت عنه الفجوات الكبرى فراح يتمتع بسمة التسلسل والاستمرار. فالمعطيات التاريخية التي حصلنا المنقبون عن الآثار لا تهب المرء أية فرصة تكفي لمثل هذا الانجاز الذي ينبغي أن يطلب لذاته بالدرجة الاولى. فالحقيقة ان جملة ما يتيحه المعطى الفعلي لا يتجاوز حشدا من اخبار يعوزها التعاقب والالتحام العضوي.

وما لم تسعفنا الحفريات، او المزيد من الحفريات، فان تاريخ فلسطين المترابط، والاحادي البنية، سوف يظل طي الغيب دون مراء. ولكن الارض التي ينبغي على الفلسطيني الراهن أن يحفرها وينقب فيها بحثا عن ذاكرته الجماعية، أو تاريخه الكلي، ترزح الآن تحت وطأة احتلال اجنبي من نمط نادر في التاريخ البشري كله. وهذا يعني ان الدخلاء وحدهم يتمتعون بالشرط الاول لكتابة تاريخ فلسطين.

بيد ان عجز المؤرخ المحدث عن أن يكتب تاريخ فلسطين لا يعني بالضرورة ان فلسطين قد كانت بغير تاريخ صاهرت الوحدة بين عناصره كلها. ولست ههنا بصدد الوحدة السياسية، اذ ان غياب الوحدة السياسية لا ينفي البتة ما فحواه ان للواقع تاريخا من نوع خاص. ولئن كانت الوحدة السياسية هي الشرط الوحيد للتاريخ الواحد، فان من المحال ان يتمكن المرء في هذه الايام الحالية من كتابة تاريخ فلسطين القديم، وذلك لافتقارنا المدقع الى الاسانيد التي تتيح لنا امكانية الحديث عن وحدة سياسية في فلسطين طوال التاريخ القديم.

في الراجح ان يكون الكنعانيون قد كتبوا تاريخهم ودونوا معظم اخبارهم واخبار الامم المجاورة لهم. ولا بد للتوراتيين من ان يكونوا قد اقتبسوا هذا التقليد من الكنعانيين. ولا عجب، فالتوراتيون قد اقتبسوا كل ما هو

جوهري في اسفارهم من الكنعانيين بالدرجة الاولى، ومن الشعوب المجاورة لفلسطين بالدرجة الثانية. فلقد اعتنى الكنعانيون بكتابة التاريخ منذ زمن بعيد، بلا ريب. وقد ساعدهم على ذلك اختراعهم للابجدية، ذلك الاختراع المنبثق أصلا عن نزعة الصيانة والاستبقاء. فالكتابة واحدة من ارقى الادوات القادرة على مواجهة الزمن وقدراته التدميرية

ان سانخونياتن البيروتي وفيلون الجبيلي وزينون الصيداوي هم بعض من بقي من الاسماء الكنعانية المهمة التي اشتغلت بعلم التاريخ منذ زمن بعيد. فلقد عاش سانخونياتن البيروتي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وهو بكل توكيد اقدم مؤرخ عرفه التاريخ، اللهم الا ان يكون التاريخ قد عرف قبله من المؤرخين من لم تصلنا اسماؤهم. وقد ضاعت مؤلفات الكنعانيين التاريخية، او غير التاريخية. أما ما يسمى «تاريخ العبرانيين» فقد صانه التحاقه بالدين من التلاشي والضياع.

لماذا ينبغي ان نكتب تاريخ فلسطين؟

لا لكي نثبت ـ كما قد يتبادر الى الذهن للوهلة الاولى ـ اسبقية الكنعانيين على التوراتيين في فلسطين، اذ ان التوراة نفسها تقر بهذا الامر وتعلنه صراحة على رؤوس الاشهاد. هذا بالاضافة الى ان البقايا الاثرية تؤكد هذه الحقيقة الى حد لا يقبل اللبس.

ان علينا في جوهر الامر، ان نكتب تاريخ فلسطين لان الانسان ذاكرة تعنى بماضي الانسان . بيد ان للكتابة ضربا من الصلة بالشؤون السياسية والاجتماعية دون ادنى ريب. إذ من شأن التأريخ لمسار شعب من الشعوب ان يرسخ التجانس او ان يسهم في انتاج الشعور الكلي الدامج. ففي الحق ان نزعة النحن لا يسعها ان تتشكل من دون ماض

يصهر المفردات في الجملة الواحدة. ولا ريب في ان الشعور الذاتي الذي يخلقه المؤرخ في ضمائر الناس مداره على وحدة الشخصية العامة لشعب من الشعوب.

فحين يصار الى تدوين الأزمنة الفلسطينية وأخبار اوقاتها المتباينة، فإن هذه البرهة الاولى تنطوي على دلالة مؤداها ان ثمة في الروح الفلسطيني حنينا الى الاستمرار في التاريخ، وتلمسا للطراز الخاص للشخصية الفلسطينية والهوية الفلسطينية، إذ كل تاريخ هو وصف للهوية الخاصة التي تؤلف المضمون الروحي لشعب من الشعوب. وهذا يعني ان المؤرخ يكمل الكاتب الادبي، بكل وضوح.

أما لماذا تتوقف هذه المقالة عند القرن الثاني عشر قبل الميلاد (املا في المتابعة في المستقبل)، فلأن المكتبة العربية تخلو من بعض الكتب عن تاريخ فلسطين منذ ذلك القرن وحتى يوم الناس هذا. بيد ان المكتبة العربية تخلو، او تكاد تخلو، من كتاب يبحث في تاريخ فلسطين منذ فجر التاريخ وحتى القرن الثاني عشر (ق.م)، وهو القرن الذي يفترض بعض المؤرخين ان العبرانيين قد فتحوا فلسطين خلاله، أو قبله بزمن يسير.

ثانيا ـ اسم فلسطين

كثيرة هي الاسماء التي اطلقت على فلسطين طوال التاريخ، ولعل «خارو» ان يكون اقدمها. وهو اسم اطلقه عليها الفراعنة منذ الالف الثالثة قبل الميلاد. أما «رتنو» فتسمية اطلقها المصريون على اقليم من الارض ليس في ميسورنا اليوم ان نحدده على وجه الدقة. فربما كانت فلسطين كلها تدخل في «رتنو» وربما كان الجليل وحده من دون بقية

الاراضي الفلسطينية هو الذي يدخل في حدود «رتنو». ولا ندري الى اين كانت تمتد «رتنو» هذه من جهة الشمال، والارجح انها كانت تنتهي عند مشارف حماة في الداخل وقرب مدينة ارواد على الساحل.

ثم ان الفراعنة قد سموا البلاد «ارض كنعان» وهذه تسمية واضحة في مخلفات تل العمارنة التي ترجع الى اوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد. ففي تلك المخلفات يجد المرء لفظة «كيناهي» و «كيناها»، وهي بكل وضوح تحريف لكلمة «كنعان»، وهي كلمة اشتقت من فعل «كنع» اي انخفض او تواضع، كما يقول فيليب حتي في «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين». وهو يضيف ما فحواه ان كلمة «كنعان» او الارض المنخفضة، التي اعتبرت لفظة سامية لوقت طويل، قد اصبحت الان موضع ريب، من جهة اصلها السامي. فثمة هذه الايام من يزعم انها من اصل حوري، وهو «كناغي»، بمعنى الصباغ الأرجواني. ومن هذا الأصل الحوري جاءت كلمة «كناخني» الموجودة في وثائق نوزي، وكذلك لفظة «كناخّي» الموجودة في رسائل تل العمارنة. وهي في العبرية كنعان، اي ارض الارجوان.

ويقول فيليب حتي ان الفراعنة قد اطلقوا على الكنعانيين اسم «فنخو»، اي صانعو السفن. ولكن حتي لا يفطن الى ما فحواه ان فنخو هذه هي اصل كلمة «فينيقيا». والحقيقة ان ثمة اعتقادا سائدا حتى اليوم بأن فينيقيا اسم مأخوذ من كلمة «فينيكس» اليونانية، وهي كلمة تعني الاحمر الارجواني. بيد ان كلمة «فنخو» الفرعونية هي اصل كلمة «فينيقيا» دون ادنى ريب. اما اليونانيون فقد اخذوا التسمية وحوروها قليلا، ثم اطلقوها على شيء اشتهرت فينيقيا بصناعته، وهو الارجوان، فضلا عن

اطلاق اللفظة نفسها على الشعب والاقليم.

وفي عصر العمارنة نفسه، اي في النصف الاول من القرن الرابع عشر (ق.م)، ظهرت في اوغاريت ملحمة شعرية جيدة تسمى «اللالىء»، ومؤلفها رئيس كهنة اوغاريت، ايلي ميلكو. وربما ظهرت هذه الملحمة في النصف الثاني من القرن نفسه، بل ربما ظهرت بعد ذلك بكثير، او لعلها كتبت في القرن الرابع عشر، ثم خضعت لشيء من التعديل بعد ذلك بقرن او بعض قرن. وعلى اية حال، فإن تلك القصيدة المؤلفة من خمسة اناشيد، تسمي فلسطين بإسم مريام[1]. ولعل هذه اللفظة ان تعني بلاد البخور، اذ المر (بكسر الميم) هو البخور او شيء يشبه البخور، وقد كان القدماء يستعملونه لتبخير المعابد، او في ابان تأدية الشعائر الدينية.

اما «بالستين»، وهو الاسم الذي صار فلسطين في اللسان العربي، وذلك جريا على عادة العرب قي تحويل الباء الى فاء، فلقد اخذ اصلا من اسم الشعب الذي استوطن السهول الساحلية الممتدة من جبل الكرمل شمالا وحتى غزة جنوبا. ولقد جاء شعب البلستو هذا من كريت، ومر بالاناضول، ودمر العاصمة الحثية، ثم سار جنوبا ودمر مدينة اوغاريت زهاء عام ١١٩٠ ق.م، ولكنه سرعان ما اتجه جنوبا من جديد ليصطدم بالمصريين، وليهزم على يد رمسيس الثالث. بيد ان الفرعون المنتصر قد سمح للبلستو بالاقامة في الساحل الذي سمي «فلستيا» بعد ذلك.

ولعل اول اشارة تاريخية الى هذا الاسم قد جاءت في مدونات الملك الاشوري ادد نيراري الرابع الذي سمى الساحل الفلسطيني باسم «بلستيا» وقد ظلت التوراة تطلق اسم «البلشتيم» على الساحل الفلسطيني نفسه، اي على الارض الواقعة بين حيفا وغزة.

اما هيرودوتس، الذي كتب «التواريخ» زهاء سنة ٤٤٠ق.م، فقد ذكر اسم «بلستين» عدة مرات، ونظر الى الاقليم بوصفه جزءا من سوريا، وهو كثيرا ما يتحدث عن السوريين الفلسطينيين، ولعله يقصد بهم الفلسطينين من غير اليهود والاغريق. ولقد اقتفى المؤرخون اليونان والرومان اثار هيرودوتس، واطلقوا على البلاد اسم فلسطين، ونظروا اليها بوصفها جزءا من سوريا. وهكذا تثبت اسم فلسطين منذ ذلك التاريخ حتى اليوم.

ثالثا ـ الهجرات

لا يتفق المؤرخون على تعيين دقيق للفترة الزمنية التي في غضونها جاء الكنعانيون والاموريون الى فلسطين، فمنهم من زعم ان الموجة السامية الاولى قد جاءت زهاء عام ٣٠٠٠ ق.م، ومنهم من ادعى ان الموجة الامورية ـ الكنعانية قد انتشرت في بلاد الشام زهاء عام ٢٥٠٠ ق.م، والحقيقة ان هذا الخلاف لا مسوغ له على الاطلاق. فلقد ظلت القبائل البدوية تتدفق على فلسطين قادمة من شرقي الاردن حتى عام النكبة تقريبا. ولهذا يمكن الظن ان القبائل البدوية قد كانت تعبر نهر الاردن باتجاه الغرب منذ زمن لا يسعنا البتة ان نحدد بدايته على وجه اليقين.

بيد ان هذا الاختلاف لم يمنع المؤرخين من الاعتقاد بأن تاريخ فلسطين يبدأ مع هذه الموجة من الهجرات على وجه التقريب.

وعلى اية حال، فقد كانت بعض المدن الفلسطينية عامرة ومزدهرة عند بداية الالف الثالث (ق.م)، اي عشية وفود الكنعانيين والاموريين الى

بلاد الشـام واستقـرارهم فيهـا، اذ لقـد اثبتت الحفـريـات ان بيت شآن (بيسان) ومجدو وجازر (تل الجزر، وهي الى الجنوب الى الرملة) وأريحا قد كانت عام ٣٠٠٠ ق.م، مأهـولـة بأنـاس تركـوا اثـارا كنعـانية. وفي عين سلوان التي لا تبعد عن اسوار القدس اكثر من رمية حجر اكتشف المنقب الاثـري باركـر، عام ١٩٠٩، قبـورا وخـزفيـات ترقى الى مطالع الالف الـرابـع (ق.م)، ولقـد كانت هذه القبـور والمخلفـات الفخـارية من بقايا الكنعانيين على ما يقول جورج مانتر ون في الصفحة الخامسة والسبعين من كتاب له عنوانه «القدس في فلسطين».

وسـرعـان ما ازدهـرت مدن كنعـانيـة اخرى بعد استقرار الكنعانيين في فلسطـين، ولا سيـما غزة (التي تعني العـزة والاباء) وعسقـلان ولاخيش وهازور وشكيم وجباع (وهي تل الغول الحالية التي تقع الى الشمال من القدس، ولا تبعد عنها سوى ثلاثة اميال).

امـا اليبـوسيـون، بنـاة القدس، فثمة اجماع تقريبا على انهم قبيلة من القبائل الكنعانية، وفدت الى فلسطين مع الموجة الاموروية ـ الكنعانية في الالـف الثـالث (ق.م)، ولـو ان فيليب حتي يورد اشـارة مؤداهـا ان اليبوسيين قد وفدوا الى فلسطين خلال حركة الهكسوس في القرن الثامن عشـر (ق.م)، وعلى ايـة حال، فإن ثمـة إجمـاعـا على ان اليبوسيين هم الـذين اسسـوا مدينـة القـدس، واسمـوهـا ياروشالم، وهي كلمة كنعانية معناها «دع شالم يؤسس». ولا ريب في ان شالم او سالم، هو اله السلام عند الكنعانيين. ومما هو جدير بالملاحظة هنا انك لا تجد الا لماما، بل قد لا تجد على الاطلاق، الها للسلام عند اي شعب من الشعوب سوى الكنعانيين.

كان الاموريون يتمتعون بقامات صلبة فارهة. وقد وصفهم سفر عاموس (٢ : ٩) بقوله : « الاموري الذي قامته مثل قامة الارز، وهو قوي كالسنديان». وكانت جماجمهم مستديرة وانوفهم كبيرة، وهم بهذا يشبهون العرب اليمانية الى حد بعيد. ومع انهم لم يتركوا الا القليل من الكتابات، فقد ذهب بعض المؤرخين الى ان لغتهم ليست سوى لهجة كنعانية وحسب. ويبدو ان اللغات السامية قد كانت شديدة التشابه والتقارب في الالف الثاني قبل الميلاد.

حل الاموريون في مرتفعات فلسطين (اي في الضفة الغربية و الجليل)، وكذلك في جبال لبنان وفي الطرف الشمالي من سوريا الحالية، او قل على طول نهر العاصي تقريبا، والى الغرب من نهر الفرات.

كان امورو، اله الحرب، اكبر الهة الاموريين. بيد انهم عبدوا الهة كثيرة اخرى يصعب على المؤرخين اليوم ان يحددوا خصائصها وأفعالها. بيد ان حدد، اله الصاعقة، قد كان اهمها على الاطلاق، وهو اله مشترك بين الاموريين والكنعانيين. وقد عبد الاموريون الها اخر اسمه رشف، وهو رب النار الذي عبده الكنعانيون بمواصفاته الاموية نفسها.

اما الههم الرابع الكبير فهو دجن، او داجون، الذي كان اله الغذاء عند الاموريين الذين انشأوا بابل في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد. وقد استمرت عبادة دجن هذا بين البلستو، اذ لقد استعاره هؤلاء القوم من الاموريين ليصير الها للسمك في غزة، وللحبوب في اسدود. وفي فلسطين اليوم قرية تدعى بيت دجن، قرب يافا، اي في سهل فلستيا، اوفي شطر من اجود اشطار ذلك السهل تربة ووفرة مياه والارجح ان تلك القرية قد كانت مركزا لعبادة هذا الاله الاموري القديم.

اما الربة المؤنثة، عند الاموريين فهي عاشرة، الشديدة الميل الى اللهو واللذة. ولا بد من انها وثيقة الصلة بعشتار الكنعانية، ولو ان بين الربتين بعض الفرق. وربما كان اسم عاشرة هذه قد تطور مع الزمان، فصار عشرتا في اواسط الالف الثاني قبل الميلاد. ومما هو جد واضح ان عاشرة وعشرتا، وكذلك عشتارت وعشيرة، هي اسماء ذات صلة بالعشرة (بكسر العين وفتحها)، وكذلك بالعشيرة والمعاشرة.

ويقال بأن كلمة «الاموريين» سومرية الاصل، ومعناها «الغربيون». ولا يدري المرء لماذا يكون الأمر كذلك ما دام الاموريون يعبدون الها يسمى امورو. فمما لا لبس فيه ان الاموريين ما اطلقوا على انفسهم هذا الاسم الا بسبب انتسابهم الى ربهم امورو. وهو اسم قد كان لهم قبل احتكاكهم بالسومريين، على الارجح. اما الاسم الذي اطلقه عليهم السومريون، فهو «مارتو»، اي سكان بلاد الغرب، وذلك نظرا الى ان بلاد الشام، التي جاء منها الاموريون الى سومر، تقع الى الغرب من بلاد الرافدين.

اما الكنعانيون ، وهم شعب عملي عظيم، ونادر الشبيه في الشؤون العملية بين جميع الشعوب القديمة، اذ لقد انعشوا الحضارة في حوض البحر الابيض المتوسط بعد انحلال مصر وبابل، وبعد انهيار الدولة الحثية، في القرن الثاني عشر (ق.م) ـ اما الكنعانيون هؤلاء فقد استوطنوا فلسطين وكامل سواحل الشام.

يعرف المؤرخون الكثير عن ديانة الكنعانيين، بيد ان ما تصعب الاجابة عنه هو هذا السؤال: هل كانت ديانة الكنعانيين في فلسطين مماثلة لديانة الكنعانيين في صيدا وصور وجبيل واغاريت، ام تراها تختلف

عنها كثيرا او قليلا؟

وأيا ما كان جوهر الشأن، فقد عبد الكنعانيون الها اسمه ايل، وهو اله الجو وأبو الالهة. اما الربة الكبرى فهي عشتار التي تختلف صورتها من مكان كنعاني الى مكان اخر. وكان حدد وبعل ورشف وأدونيس وعناة من ابرز الالهة. وقد كان للبعل مكانة كبيرة عند جميع الكنعانيين. ومع انه ابن ايل، فإن قيمته اكبر من قيمة ابيه. والبعل ممتطي الغيوم، هو رب الصواعق والمطر والاعاصير، وهو شديد الشبه بزيوس اليوناني. ولا ريب في ان هذا الاله قد أُخِذ من التراث الكنعاني بكل وضوح.

والفرق شاسع بين عشتار وعناة. فالاولى هي ربة الزواج، واحيانا ربة الاباحية. اما الثانية فعذراء طاهرة، او لعلها زوجة منسوجة من البراءة والنظافة الداخلية على الدوام.

ويبدو من اسماء بعض الاماكن التي تحدرت الى عصرنا الراهن ان فلسطين قد كانت شديدة الاعتناء بعبادة الربة عناة. فقد ظل اسم هذه المعبودة الكنعانية ماثلا حتى اليوم في اسماء هذه القرى الفلسطينية: البعنة وبيت عنيون وعناتا. اما الاولى فموقعها الى الشرق من عكا، وقد كان اسمها بيت عناة. وأما الثانية فموقعها الى الشمال من الخليل، وقد كان اسمها قديما بيت عنوت. وأما الثالثة فتقع الى الشمال من القدس، وكان اسمها قديما عناتوت.

ومن ابرز الاخبار بهذا الصدد ان اقدم الهياكل الكنعانية التي اكتشفها المنقبون قد وجدت في اريحا ومجدو. وهي ترقى الى مطالع الالف الثالث (ق.م) ويحتوي المعبد الكنعاني في بيسان، وكذلك في جازر (تل الجزر)، على مذبح صخري وتمثال الهي وعمود مقدس. وفي العمود المقدس اشارة

الى شعائر جنسية، او لعله يكون مجرد رمز جنسي وحسب. ولعل الاهم من ذلك كله ان المعبد الكنعاني الانف الذكر قد كان يحتوي على غرف تحت الارض، لا ريب في انها خصصت للتأمل والعبادة الاستثنائية التي يمارسها كبار الكهنة المتخصصين بأسرار الالهة والمتصلين بها من دون الاخرين.

ومن المؤكد ان الكنعانيين، شأنهم شأن الفراعنة قد عرفوا الوضوء قبل الصلاة، اذ ان الكنعانيين كانوا شديدي التشبث بالطهارة والنظافة واستعمال الماء قبيل الدخول في علاقة مع الله، ويبدو ان ثمة الكثير مما هو مشترك بين الكنعانيين والفراعنة. فلقد عرف المعبد الفرعوني الغرف التي تحت الارض، مثلا، وهو كبعض المعابد الكنعانية، معني بالاتصال بالقوى الغيبية في حضرة الصمت والظلام.

واتخذ الكنعانيون من الحية رمزا للخصب وليس ايسر على الذهن من تفسير هذه الظاهرة. فالحية تجدد جلدها كل عام، وبذلك تنجز الولادة الثانية، تماما كما يفعل النبات كل ربيع. والتجدد ليس واقعة من وقائع النفس او فعلا من افعالها وحسب، بل هو فضلا عن ذلك، حنين ديمومي، يرخم في اصلها الرفيع، وعلاوة على ذلك، فإن الحية تعمر طويلا، والانسان يحب العمر الطويل ويتمناه لنفسه وكذلك لمن احبهم من الناس. ولقد كانت الحية تعبد في مناطق كثيرة من فلسطين، ولا سيما في بيسان حيث الطقس حار في معظم اشهر السنة، ومن الجدير بالذكر ان الفراعنة قد عبدوا الحية او قدسوها، تماما كما فعل الكنعانيون.

ولما كان من الثابت ان الكنعانيين في لبنان قد اشتهروا بتفوقهم في مضمار الصناعة، ولا سيما صناعة الاقمشة والزجاج والعاج والارجوان

والمعادن، فإن في الميسور الظن بأن الكنعانيين في فلسطين قد كانوا ماهرين في هذه الصناعات ايضا. فلقد ادخلت صناعة البرونز الى فلسطين من شمال سوريا في اوائل الالف الثالث (ق.م). والارجح ان هذا الاقتباس قد انجزه الكنعانيون الفلسطينيون انفسهم. ولقد وجدت في اريحا الكنعانية رؤوس حراب وسكاكين وفؤوس حربية ومخارز وملاقط ترقى الى اواسط الالف الثاني قبل الميلاد. وكذلك وجدت اساور ودماليج وأقراط من الذهب والفضة في اماكن متنوعة من فلسطين ترقى الى ذلك الزمن نفسه.

ومن الجدير بالذكر ان فلسطين قد اشتهرت، في العصر الكنعاني، بصناعة الالات الموسيقية الجيدة التي اكتشف بعض منها في تل «ابو هوام» بالقرب من حيفا.

ولئن تخلفت الصناعة في فلسطين عن الصناعة في لبنان، فما ذلك الا لان الارض الفلسطينية، على فقر تربتها وقلة سهولها، اصلح للزراعة من الساحل اللبناني الضيق الى حد بعيد.

رابعا: الحرب بين مصر وفلسطين

في مدينة ابيدوس المصرية اكتشف المنقبون عن الاثار مقبرة لضابط مصري كبير اسمه «ونا» وقد كتب هذا الرجل سيرة حياته على جدران مقبرته الواسعة. ولعل هذه السيرة ان تكون اقدم سيرة حياة عرفها التاريخ. وقد تحدث «ونا» عن اصله الفقير، وعن صعوده المستمر على سلم مناصب الدولة حتى صار سميرا في بلاط الفرعون.

بيد ان أهم ما تحدث عنه «ونا» هو تلك الحرب التي قادها بنفسه ضد

فلسطين. او ضد من اسماهم «سكان الرمال» وقد حدث ذلك في زمن بيبي الاول، وهو فرعون من الاسرة السادسة، او في العقود الاولى من القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد.

بيد ان هذه الحرب لم تكن الاولى من نوعها، فقد سبقتها حرب اخرى شنها الفرعون ساحورع، وهو من الاسرة الخامسة، اي في اواسط القرن الخامس والعشرين (ق.م). وفي التصاوير التي تحدرت الينا من عصر ساحورع يظهر الاسرى الاموريون بقاماتهم الفارهة القوية كالسنديان، غير ان التاريخ لا يكاد يعرف شيئا عن تفاصيل هذه الحرب الاولى، اما الحرب الثانية، فما كان لنا ان نعرف عنها ايما شيء لولا اكتشاف مقبرة «ونا» الانفة الذكر.

يقول «ونا»: «وحين اراد جلالته ان يوقع العقوبة على الاسيويين والساكنين على الرمال، فقد جمع جلالته جيشا من عشرات الالاف الكثيرة..» ولكن «ونا» لا يذكر ايما سبب من الاسباب التي دفعت بالفرعون الى معاقبة الاسيويين والساكنين على الرمال، وهم من كانوا يسمون بالهروغليفية «عاموحريوشع» او بدو الرمال، او القبائل التي تعيش على الرمال.

ثم يسهب «ونا» في ذكر الاماكن التي تم فيها تجنيد الجيش المخصص لغزو فلسطين، وبإيجاز، فإن مصر وحدها لم تكف لتجنيد هذا الجيش، بل التجأ الفرعون الى ليبيا وبلاد النوبة طلبا للجنود، بحيث تشكل فيلق لجب تصل زمازمه اذن الجوزاء، على حد عبارة المتنبي. ولقد رافق هذا الجيش عدد كبير من الكهنة والموظفين والمترجمين. وفي هذا اشارة الى ان الامر شديد الاهمية.

ولقد راح المحدثون يتهمون «ونا» بأنه يبالغ كثيرا، ولا سيما في انتصاراته التي ضخمها الى حد لا يستسيغه العقل. ومع ان المرء قد يحبذ هذا الاتهام، فإنه لا يملك الا ان يرى في هذا الشأن نوعا من الجدية والخطورة. فما كان الفرعون ليحشد عشرات الالوف من الجند يأتي بهم من ليبيا وشمال السودان الا لان الشعوب التي استقرت في فلسطين قبل عصر الاسرة السادسة، قد اخذت تهدد الحدود المصرية من جهة سيناء على نحو خطير. وأقل ما يمكن ان يقال في هذا الشأن ان الاموريين المشهورين بشدة بأسهم في الحرب وحسن قيافتهم العسكرية، وكذلك حشود الكنعانيين الكثيرة، قد اخذت تنذر بالاستيلاء على مناجم النحاس في سيناء. ويمكن الاعتقاد كذلك بأن هذه القبائل قد اخذت تعرقل حركة القوافل التجارية المتنقلة بين مصر والشام. ولا بد لهذه القبائل من ان تكون قد آنست ضربا من الضعف في الدولة المصرية، فما عادت تخشى هيبة الفرعون الذي كان مرهوب الجانب. ويبدو ان انتقال السلطة من الاسرة الخامسة الى الاسرة السادسة في اواخر القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد قد صاحبه ضرب من الضعف في اجهزة الدولة المصرية، او شيء من التراخي على الحدود الشمالية الشرقية لمصر، الامر الذي كان من شأنه ان يشجع الفلسطينيين على التطاول على الفرعون ومقاسمته بعضا من غنائمه الاقتصادية.

خرج «ونا» الى فلسطين في خمس حملات عسكرية على اقل تقدير. وفي هذا وحده دلالة ناصعة على ان الامر كان شديد الخطورة، إذ ربما حاولت القبائل المحتشدة في فلسطين ان تجتاح مصر نفسها، وربما حاولت ذلك اكثر من مرة.

اما الحملات الاربع الاولى فقد كانت برية كلها، وأما الحملة الخامسة فهي برية وبحرية في آن واحد. فلقد خطط «ونا» خطة تقضي بأن يضع السواحل الفلسطينية بين نارين، وأن يواجه عدوه من حيث لا يحتسب ذلك العدو. فعن طريق البحر كان في ميسور الجيش المصري ان ينزل قرب حيفا او قرب يافا، ليتجه جنوبا صوب غزة حيث يفاجيء الفلسطينيين من الشمال، بينما هم يتوقعون مجيء الجيش المصري من الجنوب فقط.

ويزعم «ونا» ان جميع حملاته تكللت بالنجاح، وفي هذا ضرب من الادعاء والغرور. فلو انه نجح بالفعل لما اعاد الكرة مثنى وثلاث ورباع وخماس. والارجح ان حملته الخامسة قد نجحت بالفعل، وذلك بفضل تحقيقها لعنصر المفاجأة الآنف الذكر.

ولقد جاء في تقريره الشعري الذي رفعه الى الفرعون ان جيشه قد عاد سالما بعد ما خرب ارض ساكني الرمال ودمر مراكزهم المسورة، وهدم حصونهم المنيعة، وقطع تينهم وكرومهم، وأضرم النار في جميع «بيوتهم الفاخرة»، على حد قوله، وذبح عشرات الالاف من جنودهم، وأسر جيوشا كثيرة العدد.

ويستفاد من هذا التقرير ان هذه ليست حربا بين مصر والبدو، بل هي حرب بين شعبين متحضرين، وإن كان للبدو حضور كثيف فيها. فالفلسطينيون الذين حاربهم «ونا» يسكنون في مدن مسورة، عليها حصون منيعة، وفيها بيوت فاخرة، وسكانها يزرعون التين والكرمة.

وبعدما ينتهي الجزء الشعري من تقرير «ونا» فإن القائد المصري ينتقل الى النثر ليروي كيف قضى على تمرد قام به السكان عند مكان يسمى

«أنف الريم» وليس ثمة دليل واحد على ان هذا المكان هو جبل الكرمل نفسه، كما ادعى السير ألن غاردنر، مؤلف «مصر الفراعنة». بيد ان «ونا» نفسه يؤكد في الجزء النثري من تقريره هذا على انه قد اوغل شمالا حتى بلغ الى التلال. وهذا يعني بالضبط انه قد وصل إما الى الكرمل، او الى جبال الجليل حيث فتك ببعض السكان. ويبدو ان «ونا» قد كان يتحرك شمالا وفي نيته حماية الطريق الساحلي بين مصر والمدن الكنعانية في لبنان وسوريا، ولا سيما جبيل واوغاريت.

ولسنا ندري كيف انتهت هذه الحرب بين مصر وفلسطين، مثلما لا ندري كم طال امدها. ويمكن الظن بأن الحرب قد استغرقت عشرين سنة او نحو ذلك. ومن المحتمل ان تكون الدبلوماسية قد لعبت دورا خطيرا في تهدئة خواطر المنكوبين اثر الحرب، وكذلك في استمالتهم الى السياسة المصرية. وإلا فلماذا كان الجيش قد اصطحب معه حشدا من كبار الموظفين في الدولة المصرية؟

ولم ينته القتال بين المصريين والفلسطينيين بانتهاء هذه الحرب، فلقد اعتادت القبائل البدوية أن تأتي من الشرق وتحتشد في فلسطين على نية التوجه غربا الى مصر، حيث يمكن للنيل ان يقدم الماء الكافي لمواشي القبائل. ولكن الادارة المصرية ما كانت لتسمح لهم بدخول مصر الا وفقا لامكانيات الاستيعاب. كما ان مصر لم تكن تحبذ استضافة بعض القبائل بسبب شغبها وشدة ميلها الى العدوان والتخريب. فكان المرفوضون يحتشدون دوما قرب غزة ليضغطوا على الحدود المصرية، وليسببوا للحكومة المصرية الكثير من المتاعب. ولهذا فقد وصلتنا اشارة في المدونات الفرعونية، فحواها ان القتال قد اندلع مرة اخرى على الحدود

المصرية ـ الفلسطينية، وذلك بعد مرور مائة سنة تقريبا على الحرب الطاحنة التي خاضها «ونا». وكل حرب من هذا النوع هي حلقة في سلسلة طويلة من الضغوط العسكرية التي تعرضت لها مصر على حدودها الشمالية الشرقية طوال تاريخها الفرعوني كله. ولا بد من ان تكون القبائل المحتشدة في جنوب فلسطين قد استفحل خطرها يوم انهار العصر الهرمي العظيم في اواسط القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد. ويبدو انها قد عرقلت حركة التجارة بين مصر والشام. بل يبدو انها قد الغت تلك الحركة الغاء تاما على وجه التقريب. فلقد تحدرت الينا وثيقة هير وغليفية تركها كاهن حكيم يدعى ايبوور، او ايبو العجوز، الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، وفيهايتحدث كاتبها عن الدمار الذي آلت اليه البلاد المصرية، كما يتحدث عن هيمنة الاسيويين على مقدرات مصر ومستقبلها. وهو يقول بصراحة: «ما عاد احد يبحر اليوم نحو جبيل». وفي هذا دلالة قاطعة على ان حركة التجارة قد توقفت عن طريق البحر. وبداهة لا بد للقبائل البدوية من ان تكون قد اغلقت الطريق التجاري البري. وأهم ما في الامر ان ايبور يوضح دور الاسيويين (الذين قد لا يكونون فلسطينيين بالضرورة) في تخريب مصر والقضاء على مدنيتها طوال قرنين من الزمان.

والحقيقة ان تاريخ فلسطين القديم، منذ فجر التاريخ وحتى رمسيس الثالث، متشابك مع تاريخ مصر الى حد يتعذر معه الحديث عن فلسطين من دون الحديث عن مصر ابدا.

خامسا ـ فلسطين قبيل عصر الهكسوس

بعد انتهاء الحرب المصرية ـ الفلسطينية في اواسط القرن الرابع والعشرين (ق.م)، او في اوائله، فإن تاريخ فلسطين يدخل في ثغرة طويلة لا يعرف المؤرخ كيف يردمها، او يملأ فراغها، وهي تمتد حتى اواسط القرن العشرين (ق.م)، اذ منذ ذلك الزمن تصبح المعلومات عن فلسطين اوفر من ذي قبل.

ففي عام ١٩٧٠ ق.م اغتيل امنمحات (امنميس) الاول مؤسس السلالة الفرعونية الثانية عشرة، وهي اقوى السلالات في تاريخ مصر على الاطلاق، وكان ولي عهده سنوسرت (سيزوستريس) الاول في حملة ضد ليبيا حين ابلغه نبأ ابيه. وكان في رفقة ولي العهد رجل من كبار المتنفذين في البلاط يسمى سنوحي.

سمع سنوحي، وهو عائد من ليبيا بصحبة ولي العهد، بأنباء الاضطراب في البلاط، فقرر ان يعتزل الجيش متخوفا من فتنة كبيرة، وأن يرحل الى خارج مصر طلبا للامن والراحة. وليس من المستبعد ان يكون سنوحي من المساهمين في الفتنة، او في اغتيال الفرعون.

وعلى اية حال، فقد اتجه سنوحي الى الشرق وعبر سيناء ثم دخل بلاد «رتنو»، لينفق فيها فترة طويلة من عمره. ويزعم السير الن غاردنر ان سنوحي قد قضى فترة اغترابه، او منفاه الطوعي، في فلسطين. بينما يزعم فيليب حتي ان سنوحي قد عاش تلك الفترة من عمره في لبنان، بل حصرا في سهل البقاع.

وأيا ما كان جوهر الامر، فإن الركبان قد تناقلت اخباره حتى بلغت الى مسامع سنوسرت الاول، فما كان من الفرعون الا ان سامحه وأرسل من يعود به الى الوطن. ولدى عودة سنوحي الى مصر فقد كتب مذكرات رحلته التي قد تكون اقدم تدوين لادب الرحلات في تاريخ البشرية. وهكذا وقع في ايدينا اقدم وصف لبلاد «رتنو»، التي قد تشمل كامل فلسطين، او منطقة الجليل على الاقل.

تحدث سنوحي عن التين والكرمة والخمر الاغزر من الماء، كما تحدث عن العسل والزيتون والشعير والقمح والمواشي التي لا حصر لها، وهذا يعني ان البلاد قد كانت في حال من الرخاء والازدهار الاقتصادي والسعادة المادية التي لم ينغصها شيء سوى الحروب. فالحقيقة ان اهم خبر ذكره سنوحي هو اشتراكه مع اهل «رتنو» في صد غارة بدوية اطلق على رؤسائها اسم «حقاو خاسوت»، اي حكام البراري، وهذا هو الاسم الذي اطلقه المصريون على الهكسوس فيما بعد.

تزوج سنوحي من ابنة امير اموري، وعاش في كنف ذلك الامير، وحاول ان يستميله الى صف السياسة الفرعونية، ولهذا فإننا نجد اليوم من يظن بأن سنوحي قد كان مكلفا من الفرعون بمهمة دبلوماسية. بيد ان الامير الاموري، النازع الى الحرية بحكم حياته البدوية، قد رفض التبعية للفرعون وآثر ان يعيش خارج الاطر السياسية الدولية، وربما امكن القول أن مهمة سنوحي قد نجحت في «رتنو»، وذلك حينما تمكن من تجنيد سكان البلاد في المعركة ضد شعب البراري الذين اعتادت مصر ان تحسب الف حساب لهجماتهم المتواترة على حدودها الشمالية الشرقية. ومما يشجع المرء على الاعتقاد بأن سنوحي قد جاء الى رتنو، مكلفا بمهمة من

قبل الفرعون نفسه، ان سنوسرت (سيزوسستريس) الاول قد كان القائد العسكري المضطلع بمحاربة الاسيويين قبل تكليفه بمهمة الحرب مع ليبيا، اي يوم لم يكن الا وليا للعهد وحسب.

ويتحدث سنوحي عن معرفة السكان بمصر والمصريين، بل يذكر ان قسما من الناس قد كان يتقن اللغة الهيروغليفية وهو يضيف ما فحواه ان التجار المصريين كثيرا ما كانوا يترددون على رتنو، ثم يجتازونها الى بلاد ابعد منها. والحقيقة ان آثار مجدو وجازر في فلسطين تؤكد رواج التبادل التجاري بين مصر وفلسطين خلال القرن العشرين (ق.م).

وفي مقبرة خنوم حوتب، في بني حسن، وخنوم حوتب هو حاكم اقليم الوعل في عهد سنوسرت (سيزوستريس) الثاني، اي في حدود سنة ١٩٠٠ ق.م عثر المنقبون عن الاثار على رسوم تصويرية جميلة لجماعة من سكان بلاد الشام، يرجح المؤرخون انهم من فلسطين. كان هؤلاء القوم يجلبون الكحل الى «مدير اقليم الوعل»، وكان من بينهم ابشا، وهو شيخ اموري ربما كان يعيش في اواسط فلسطين او في شطرها الجنوبي. ومع ابشا، يرى الناظر في اللوحة بعض رجال قبيلته وبعض نسائها، وجميعهم يلبسون الثياب القصيرة الزاهية الالوان المصنوعة على نحو محكم ودقيق، مما يؤكد تطور الصناعة في فلسطين خلال الالف الثالث (ق.م) وليس في القوم من يحفى ابدا، بل ان النساء يلبسن الجوارب الحمراء، فضلا عن الاحذية اللامعة. اما الفساتين فشبيهة بفساتين النساء في عصرنا الراهن، اذ الكتف الايمن عار تماما، اما الايسر فلا تغطيه الا وصلة من شأنها ان تثبت الفستان على الجسد. وأما غطاء الرأس فيقتصر على عصبة صغيرة تجعل الشعر ينسدل الى الوراء بحيث يترك العنق، او النحر على وجه

التحديد، مكشوفا كله تقريبا.

اما الرجال فعيونهم سوداء، وكذلك لحاهم المعتنى بها وبترتيبها على هيئة تنم عن الوقار. فهي اشبه بخط اسود رفيع ورقيق يستدير حول الوجه كله. والوجوه مفعمة بالحيوية والطيبة، وكذلك الاجسام التي نأى عنها الرهل والمرض.

ومن اللافت للنظر بين هذه الجماعة ذلك الرجل الذي يسوق حمارا ويمشي في مؤخرة الركب. وهو يحمل قيثارة ثمانية الأوتار، وفي يده اداة يعزف بها على القيثارة، مما يؤكد ان الادوات الموسيقية جد قديمة في فلسطين. وهو ينتعل صندلا، ويضع على ظهره قربة ماء، ويرتدي ثوبا ملونا زاهيا. ليستر ما بين السرة والركبتين. اما بقية جسمه فعارية تماما. وثمة رمح وبعض العصي فوق سرج الحمار الصغير. وفي هذا اشارة الى ان الاموريين شعب محارب تخشاه مصر. ويبدو ان هذه القبيلة التي يقودها ابشا في الاراضي المصرية قد كانت موالية لسياسة الفرعون.

وفي الفصل السادس من كتاب السير ألن غاردنر، «مصر الفراعنة» يستقرىء المؤرخ البريطاني من قصة سنوحي، وكذلك من نبوءة نفرتي، «ان حاكما قويا مفردا كان يسيطر تقريبا على معظم فلسطين». ولكنه سرعان ما يضيف قائلا: «ومع ذلك فإن ثمة ما يعارض هذا الدليل».

وأيا ما كان جوهر الشأن، فإن في حوزة التاريخ من الوثائق ما يؤكد ان الحرب قد نشبت من جديد على الجبهة الشمالية الشرقية لمصر، في عهد امنمحات (امنمس) الاول، مؤسس الاسرة الثانية عشرة القوية. فلقد كان ولي العهد، سنوسرت الاول هو القائد العسكري المكلف بمقاتلة الاسيويين على الحدود المصرية ـ الفلسطينية. والاسيويون اسم اطلقه

المصريون على جميع الشعوب التي تأتيهم من الشمال الشرقي، اي من جهة فلسطين، سواء كانت تلك الشعوب فلسطينية ام غير فلسطينية. ويبدو ان انتقال السلطة من الاسرة الحادية عشرة الى الاسرة الثانية عشرة قد رافقه بعض الاضطراب في الادارة الفرعونية، مما شجع الفلسطينيين، او القبائل البدوية المستتبة في فلسطين، او النازحة اليها من جهة الشرق، على اجتياز الحدود باتجاه النيل الوفير المياه، او باتجاه بعض المناجم في سيناء. ولكن جيش الفرعون قد تصدى لهم وأسر الكثير منهم في حرب لا بد انها طاحنة. فلقد اقتحم الجيش المصري فلسطين وأخذ يحاصر المدن ويأسر الكثير من امرائها وأعيانها على وجه الخصوص. وقد ذكرت الوثائق الفرعونية اسماء المدن التي فتحها الجيش المصري، ولكن من العسير على المرء ان يحدد هذه المدن بأسمائها الراهنة. ومن المحتمل، بل من المرجح، ان تكون عسقلان وششم (شكيم)، التي بنيت مكانها قرية بلاطة الحالية، قرب نابلس، من بين المدن التي تعرضت للهجوم.

لقد سبق للكاهن ايبوور ان قال بأن مصر قد صارت العوبةفي ايدي الاسيويين خلال القرن الثالث والعشرين (ق.م). ولا بد ان هذا الوضع المتردي قد استمر على حاله حتى نهوض الدولة الوسطى في اواسط القرن الحادي والعشرين (ق.م)، اي حتى ظهور السلالة الحادية عشرة التي لم تحكم سوى بضعة عقود من السنين، وربما فكر امتمحات الاول، وهو فرعون طموح بحكم كونه مؤسس سلالة جديدة، ان يطرد الاسيويين من مصر، وجلهم من التجار والبدو المحاربين او المشاغبين، ثم يطاردهم خلف الحدود المصرية، ليضم الشطر الجنوبي الى سلطانه، بحيث يتخذ منه قلعة للدفاع المبكر عن مصر ضد الاسيويين. ان هذا الحادث يشبه

تماما ما حدث يوم هبت مصر لكي تطرد الهكسوس من اراضيها. وربما حدس العقل المستأني بأن الحادث نفسه قد تكرر مرة ثالثة في زمن رمسيس الثاني او رمسيس الثالث.

بيد ان تدويخ فلسطين في الربع الاول من القرن العشرين (ق.م) لم يمنعها من الانتفاض والتمرد على السياسة المصرية من جديد. وهكذا كان على سنوسرت (سيزوسسترس) الثالث، وهو اقوى فرعون عرفته مصر طوال تاريخها، ان يقوم بهجوم شامل جديد على فلسطين خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر (ق.م).

ويحدثنا عن هذا الهجوم واحد من كبار الضباط الذين رافقوا الفرعون في حملته هذه. فلقد صرح (سبك خو) انه اشترك في الزحف على شكيم، وأن الفرعون قد انتصر على تلك المدينة وأخضعها لارادته بعد قتال شديد. وأضاف سبك خو ان الملك نفسه قد كافأه من اجل بسالته النادرة، فنال قوسا وخنجرا مفضضين ومذهبين، كما نال صولجانا من الذهب والفضة، وذلك فضلا عن اسلحة الاسرى التي اخذها كغنيمة حرب.

وبعد تلك الحملة التي لا ريب في انها كانت عنيفة ضارية، بحيث نتج عنها رضوخ اواسط فلسطين وشطرها الجنوبي لفرعون مصر، فقد راحت الوفود الفلسطينية تزدحم على بلاط الملك المنتصر لتؤدي الطاعة والولاء، ولتقدم انفس ما يمكن تقديمه لاقوى ملك على الارض في ذلك الزمان.

ويقول السير الن غاردنر ان وثائق تلك الفترة قد تخلف في الذهن انطباعا فحواه ان «فلسطين كان يسكنها حتى ذلك الوقت قبائل صغيرة،

او جماعات يحكم كلا منها امير من اهلها».

ولكن الحقيقة ليست على هذا النحو ابدا، فالمشهد الفلسطيني لم يكن هكذا في مطالع الالف الثاني (ق.م)، إذ من المؤكد ان المدن الفلسطينية قد كانت شديدة الازدهار، بل ان ازدهارها لم يكن ليقل عن ازدهار المدن المصرية نفسها. ولا ادل على ذلك من تقدم الصناعة في فلسطين خلال تلك الحقبة التاريخية. فالملابس التي يرتديها الاموريون، والهدايا الفاخرة التي قدمها امراء فلسطين للفرعون، والبقايا الاثرية الكثيرة التي عثر عليها المنقبون عن الاثار في بعض الاماكن الفلسطينية، ان هذا كله يدل دلالة قاطعة على ان الصناعة قد كانت متقدمة في كثير من مدن البلاد. ولا ريب في أن الصناعة لا تزدهر الا في مدن. اما عن الوحدة السياسية فلسنا نعرف شيئا الا ان يكون مجرد ظن او تخمين.

وعلى اي حال، فلا ريب ان كل مدينة فلسطينية قد كان لها ملك وحكومة تهيمن على جملة القرى التابعة لها، وغير مستبعد ان يكون الملك الحاكم في المدينة الاقوى قد كان يحتل مكانة خاصة بين الملوك، بحيث يمكن التخمين بأنه قد كان مركزا ترتبط به دائرة من الملوك الاضعف. ومن الواضح ان عسقلان في الساحل الجنوبي، وشكيم في الداخل الاوسط، قد كانتا مدينتين قويتين. ولا يمكن ان لا يكون ملك عسقلان قد فكر في توحيد الساحل من يافا الى غزة، مثلما لا يمكن ان لا يكون ملك شكيم قد فكر في توحيد الداخل من مرج ابن عامر حتى الخليل عند الطرف الشمالي لصحراء النقب. اما الجليل فمعلوماتنا عنه قليلة منذ فجر التاريخ وحتى عصر اخناتون، وذلك لبعده عن دائرة النفوذ المصري. اذ ان الوثائق الفرعونية التي بين ايدينا لا تشير الا الى احتكاك واحد بين

مصر الرسمية وبين الجليل خلال عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى كلتيهما. ومن الواضح ان ذلك الاحتكاك الوحيد ليس سوى تلك الحملة التي قام بها «ونا» على الجليل بعدما احتل الساحل الفلسطيني كله، على وجه التقريب.

وبالطبع ليس في ميسور المرء ان يتنكر كليا لفكرة غاردنر الآنفة الذكر، اذ لا ريب في أن القبائل البدوية قد كانت ترتع في مرج ابن عامر، وكذلك في السهول الساحلية وعلى ضفاف نهر الاردن. والبدو، حتى اليوم، تدين كل قبيلة منهم بالطاعة لامير ها الخاص، تماما مثلما قال غاردنر. ولكن الوثائق الفرعونية في عهد الدولة الوسطى تشهد بأن الجيش المصري قد حارب ضد مدن وأسر أمراء مدن ايضا، ويبدو من سياق الاخبار ان الجيش المصري، حين يخترق الحدود الفلسطينية، انما يفعل ذلك ليقاتل ضد المدن وليس ضد البدو. اما القبائل الرحالة، فالارجح ان مصر قد كانت تحاربها داخل سيناء، وعند الحدود المصرية ـ الفلسطينية وحسب.

ويبدو ان الصلات بين مصر وفلسطين قد ظلت ودية بعد وفاة سيزوستريس [٢] الثالث عام ١٨٥٠ ق.م، فمن مظاهر حسن الجوار والعلاقة الطيبة بين البلدين ان واحدا من اخوة امير رتنو كان يساعد المصريين في استخراج الفيروز من مناجمه قرب سرابيط الخادم في صحراء سيناء، وذلك في عصر امنمحات[٣] الثالث الذي ورث العرش عن سيزوستريس الثالث، وحكم طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ق.م. ولا يستبعد ان يكون هذا الرجل أميرا على واحدة من المدن الفلسطينية القريبة من الحدود المصرية، مثلما لا يستبعد ان تكون رتنو كلها موحدة تحت حكم امير واحد.

وقد صانت لنا بعض الوثائق المصرية من الدولة الوسطى اسماء الكثير من الكنعانيين الذين كانوا يعملون في المناجم المصرية وكذلك في مقالع الحجارة اللازمة للعمارة الفرعونية التي لا نظير لها في تاريخ العالم كله. ولقد كان من الكنعانيين إماء واتباع في المعابد الفرعونية، وفي بيوت بعض الاثرياء المصريين. وتؤكد بعض الوثائق ان قبائل العامو، او الآسيويين، قد تدفقت على الدلتا خلال عهد الاسرة الثانية عشرة. اما الستيو، وهم قوم من الآسيويين وفدوا على مصر عبر فلسطين، فقد صدتهم الادارة الفرعونية عن حدود الدلتا لسبب مجهول. ولقد بنت الدولة الوسطى أسواراً لها بوابات على طول برزخ السويس، وذلك لمحاربة القبائل الآسيوية والتحكم بدخولها الى مصر، وفي هذا دلالة واضحة على الموجات البدوية الضاغطة على الحدود الشمالية الشرقية لمصر الفرعونية، وهي الموجات التي سوف تتمكن احداها من الهيمنة على مصر زهاء قرنين من الزمان.

سادساً ـ فلسطين والهكسوس

من المؤكد ان «الهكسوس» لفظة يونانية جاءت بمثابة تحريف لكلمتين هيروغليفيتين هما «حقاوخاسوت»، او حكام البراري. وخلاصة أمر هؤلاء القوم انهم خليط من شعوب سامية وآرية احتشدت في الشطر الشمالي من بلاد الشام، ولا سيما الجزيرة، ثم أخذت تهاجم بلاد رتنو ابتداء من القرن العشرين (ق.م). وقد استفحل أمر هذه الشعوب فهيمنت على بلاد الشام كلها في حدود سنة ١٨٠٠ ق.م. وعندما راحت بعض القبائل الآرية تضغط على بلاد الشام من جديد في أواخر القرن الثامن عشر، أو في اواسطه، فإن مجموعات من الهكسوس، بعضها من

الآموريين، قد اغارت على مصر عن طريق فلسطين، واجتاحت الدلتا عنوة والغت نفوذ الاسرة الثالثة عشرة من شمال مصر، ثم من اواسطها بعد ذلك. وهكذا بدأ عصر الهكسوس الذي سوف يدوم اكثر من مائة وخمسين سنة، او نحو ذلك.

بنى الهكسوس عدة مدن أهمها قطنة التي بالقرب من مدينة حمص، وشاروحين (تل فرعة الحالية) في جنوب فلسطين، وجت وعرة، وهي هوارة الحالية، وقد جعلها اليونانيون أفاريس، وموقعها في الشطر الشرقي من الدلتا.

وأهم ما في أمر عمارتهم ذلك النمط من المدينة الحصينة، الواسعة والقادرة على استيعاب مركباتهم وايواء خيولهم. فلقد كانت تلك بمثابة اسوار مرتفعة وسميكة ومائلة يصنعونها من الطين الصلب، ويحيط بها في الغالب خندق عريض وعميق. وأشهر مواقع الهكسوس المحصنة في فلسطين هي حاصور، ومعناها السياج، وتسمى اليوم تل القدح، وهو تل يقع الى الشمال من بحيرة طبرية، وكذلك شكيم ولا خيش (قرب غزة وعسقلان) واريحا، وبيت شمش التي تسمى اليوم عين شمس، وتقع بين يافا والخليل، وتبعد عن القدس غربا زهاء ثلاثين كيلومترا.

جاء الهكسوس الى بلاد الشام ومصر بالحصان والعربة الحربية، كما جاؤوا بالسيف الحديدي المنحني والقوس المركب، وكلاهما سلاحان اكاديان قديمان، وقد أجاد الهكسوس صناعة المعادن، ولا سيما البرونز، كما أجادوا صناعة الخزف والحلي والنقش على العاج. وفي فلسطين، بوجه خاص، تقدمت صناعة الخزف كثيراً في عصر الهكسوس، بحيث بلغت ذروة لم تألفها من قبل.

وفي الراجح ان الحصان قد كان توتماً لدى الهكسوس، فقد كانوا يدفنونه في قبر خاص به، واحياناً مع صاحبه، وهذا ما تدل عليه بقايا الخيول التي اكتشفت في تل العجول وهذا التل هو غزة القديمة. ويبدو ان الهكسوس كانو يأكلون لحم الحصان في احتفال ديني خاص، تماماً كما هو شأن التوتم لدى جميع الشعوب البدائية. ومن الجدير بالملاحظة ان الحصان لم يكن يستخدم في الركوب، وانما في جر عربات الحرب ولا ريب في ان الهكسوس قد احرزوا انتصاراتهم العسكرية على جميع اعدائهم بفضل الحصان والعربة التي يجرها، وكذلك بفضل الاسلحة المعدنية المتطورة الى حد لم تألفه مصر من قبل.

مثّل الهكسوس في التاريخ المصري السلالتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة. وكان الملك خيان اعظم ملوك السلالة الخامسة عشرة. وقد استطاع هذا الملك القوي ان يوحد مصر وبلاد الشام كلها في دولة واحدة لاول مرة في التاريخ. والارجح ان ذلك قد حدث في اواسط القرن السابع عشر (ق.م)، اي زهاء عام ١٦٥٠ أو ١٦٦٠ ق.م. ولقد عثر المنقبون عن الآثار على الكثير من بقايا الملك خيان الهكسوسي، كما عثروا على الكثير من بقايا أبوفيس الاول، وهو ملك ينتمي الى السلالة الخامسة عشرة نفسها.

يقول احمد سوسة في كتابه «العرب واليهود في التاريخ» : «ومما يذكر ان اثنين من ملوك الهكسوس كانا يحملان اسم «يعقوب إيل» و«يعقوب - بعل»، جرياً على العادة المتبعة بالحاق اسم الاله باسم الملك من قبيل التبرك» (ص ١٧١).

ويقول فيليب حتي في الجزء الاول من «تاريخ سوريا ولبنان

وفلسطين»: «وكانت اسماؤ هم كنعانية او آمورية واضحة، مثل عنات هار ويعقوب هار، بمعنى: ليحمي هار اله الجبل».

ويضيف حتّي: «ويعقوب هذا هو حتماً يعقوب المعروف في التوارة» (ص ١٦٠).

ولماذا «حتماً» هذه؟ هل من المحال ان يكون في الدنيا اثنان اسم كل منهما يعقوب؟

ويقول أسد الاشقر في الجزء الاول من «تاريخ سوريا»: «ويبدو ان اليهود، بقيادة يعقوب، قد دخلوا مصر في تلك الحقبة» (ص ١٥٥).

يقيناً ان عزرا، اكبر مؤلفي الاسفار التوراتية، ما كان قد سمع بالهكسوس قط، ولو انه قد ترامى الى مسامعه ان اليهود قد دخلوا مصر بقيادة يعقوب في عصر الهكسوس، او ان يعقوب الهكسوسي هو يعقوب التوارة، لما اكتفى بأن يجعل من اليهود شعب الله المختار، بل لجعل منهم تجسداً لقوة الله في الارض.

ان في أيدينا حقيقة من شأنها ان تدحض هذه المزاعم وان تنسفها نسفاً نهائياً، بحيث يثبت لدينا ما فحواه ان ليس لليهود، ولا لنسل ابراهيم، اية صلة بالهكسوس على الاطلاق.

ان كاتب هذه السطور لم يقع قط على مؤرخ واحد او كتاب واحد قد تنبه الى أهمية هذه الجملة من جمل التوراة في تحديد الزمن الذي عاش فيه ابراهيم وابنه اسحق وحفيده يعقوب (هذا طبعاً اذا سلم المرء بأن هؤلاء الاشخاص قد وجدوا بالفعل).

«وتغرب ابراهيم في ارض الفلسطينيين اياماً كثيرة». هذه هي الجملة الاخيرة من الاصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين.

ولا يتوقف الامر ههنا فان ابراهيم قد احتك كثيراً مع ابيمالك، وهو ملك الفلسطينيين، او احد ملوكهم. بل ان ابيمالك هذا قد تزوج سارة زوجة ابراهيم الذي زعم أنها أخته (الاصحاح العشرون من التكوين).

والآن، هل ثمة من يجهل ان البلستو، او الفلسطينيين، الذين تحالف ابراهيم مع ملكهم (اواخر الاصحاح الحادي والعشرين) لم يظهروا على مسرح التاريخ الا في القرن الثاني عشر (ق.م)؟ اذن، متى عاش ابراهيم؟ اما في هذا القرن او في القرن الذي تلاه. ومتى فرط أمر الهكسوس ؟ قبل مجيء البلستو الى فلسطين بثلاثة قرون أو أربعة. اذن، لا يمكن لابراهيم، ولا لحفيده يعقوب ان يكون قد عاصر الهكسوس ابداً.

ومن الغرائب حقا ان الجميع يصرون على ان ابراهيم قد عاش في القرن التاسع عشر (ق.م). دون اي انتباه الى علاقة ابراهيم الصريحة بالبلستو الذين لم يظهروا على مسرح التاريخ الا بعد سبعة قرون من القرن التاسع عشر (ق.م). من الغرائب الا ينتبه احد الى دلالة الصلات التي قامت بين ابراهيم وملك البلستو، أقصد قدرة هذه الصلات على تحديد الزمن الذي عاش فيه ابراهيم، ان كان ابراهيم التوراة قد عاش بالفعل.

اذن، لا صلة لليهود بالهكسوس ولسوف تعرض هذه المقالة للسبب الذي دفع كتاب التوارة الى اختراع شخصية ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف. وعن يوسف هذا يقول احمد سوسة انه قد اكتشف المنقبون عن الآثار مكاناً يسمى يوسف ـ بعل. وماذا في هذا ؟ ان يوسف ـ بعل هو اسم كنعاني، ولا يعني شيئاً سوى ان الساميين قد اجتاحوا مصر خلال

العصر الذي سمي عصر الهكسوس.

ان أهم ما ينبغي ان نعرفه عن الهكسوس خبر اورده اودلف ارمان في كتاب جيد عنوانه «ديانة مصر القديمة» يقول ذلك المؤرخ الالماني : «عندما اتخذ الهكسوس عاصمة لملكهم في شرق الدلتا، عبدوا الاله سوتخ، وقد تواتر ان الملك ابوفيس «لم يعبد الهاً آخر في كافة البلاد». (ص ١٢٠ من الترجمة العربية).

وهذا يعني ان الملك ابوفيس، الذي عاش في القرن السابع عشر، اي قبل ابراهيم بخمسة قرون على أقل تقدير، قد كان اول موحد في التاريخ المعلوم. فمن الجهالة ان ينسب التوحيد الى ابراهيم الذي لا يملك احد البتة ان يثبت له اي وجود فعلي.

وزهاء عام ١٥٨٠ق. م بدأت مصر حربها التحريرية ضد الهكسوس. ولقد دشن هذه الحرب ملك باسل يسمى سكنن رع، مدعوماً بجماهير الشعب ورؤوس الاموال المصرية، بينما عارضه الاقطاعيون المصريون الذين جاء حكم الغزاة ليقوي وجودهم ضد المركز، وذلك لان الظاهرة الاقطاعية تمزيق من شأنه ان يثبت حكم الاجانب المحتلين.

والارجح ان الهكسوس قد قتلوا هذا الملك الطيبي الوطني في ساحة المعركة. فقد اكتشف الاركيولوجيون جمجمته ووجدوا فيها أثار خمسة جراح بالسيف، فضلاً عن آثار بضعة سهام. بيد ان ابنه كاموزه (الروح يولد)، وقد اسماه الاغريق كاموس، قد تابع رسالة أبيه، فراح يقاتل الغزاة بروح وطنية باسلة وجادة. واتخذ كاموس من ارادة آمون سبباً للحرب ضد هؤلاء العامو (البدو) الذين يعبدون ست، اله الشر. لقد اعلن كاموزه انه ينفذ ارادة آمون الذي وعده بالنصر بعدما طالبه بمقاتلة الكفار

والاشرار.

وشن كاموزه الحرب وانتصر بالفعل على الهكسوس في الشمال، ثم عاد الى الجنوب ليموت في ظرف غامض، وليتولى العرش من بعده اخوه احمس (عاح موزه = القمر يولد). وهذا هو المحرر الفعلي لمصر من الهكسوس، فقد طردهم من الاراضي المصرية الى الابد بعدما فتح عاصمتهم أفاريس. وقد تم ذلك زهاء عام ١٥٧٥ ق.م.

بيد ان فلسطين قد كانت القاعدة الخلفية للهكسوس، فراحوا يتجمعون في جنوب فلسطين، ولا سيما في شاروحين (تل الدوير حالياً)، وهي التي جعلوا منها معقلاً كبيراً بعد هزيمتهم في مصر. والحقيقة انهم قد اخذوا يهددون ممكلة الفرعون من هذا المعقل الحصين. وهكذا ادرك احمس ان مصر سوف تظل تحت رحمة الهكسوس ما لم تسقط شاروحين بعد أفاريس. فزحف الفرعون المظفر على فلسطين، وحاصر شاروحين زهاء ثلاثة اعوام متواصلة، مما اضطرهم الى الجلاء عنها صوب الشمال، ولكن احمس لم يتوقف عند شاروحين، بل راح يطارد الهكسوس في فلسطين كلها على وجه التقريب. ولما امتنعت عليه مدينة اريحا، التي كانت واحداً من اكبر معاقل الهكسوس، فقد دمرها تدميراً شاملاً دونما رحمة، وهذا هو التدمير الوحيد الذي تعرضت له مدينة اريحا خلال الالف الثاني (ق.م)، الامر الذي يعني ان تدمير اريحا المنسوب الى يشوع بن نون التوراتي لا تؤيده الاركيولوجيا على الاطلاق.

وزهاء عام ١٥٥٠ق.م، توفي احمس، مؤسس الامبراطورية المصرية. بيد ان ورثته قد تابعوا سياسته في الزحف شمالاً على بلاد الشام. وكان اولهم تحوتمس الاول الذي اجتاح فلسطين كلها، ثم زحف

تل الغرة

شمالاً حتى بلغ الى «نهارين»، او النهرين، اي بلاد الدجلة والفرات. وقد ثبت تحوتمس الاول حدود الدولة المصرية على نهر الفرات بواسطة نصب تذكاري وضعه على الضفة اليسرى للنهر بعدما اجتازه في مكان بالقرب من كركميش (حالياً جرابلس). بيد ان السياسة المصرية لم تترسخ في بلاد الشام الا ابتداء من عصر تحوتمس الثالث الذي حكم اكثر من نصف قرن.

سابعاً ـ فلسطين في الامبراطورية المصرية

قام تحوتمس الثالث، وهو اشهر محارب في تاريخ مصر الفرعونية، بست عشرة حملة على بلاد الشام، وقد كانت الحملة الاولى أهم هذه الحملات على الاطلاق. ففي هذه الحملة التي تمت عام ١٤٦٨ تجابه الفرعون الكبير مع حلف يتألف من ثلاثمائة وخمسين ملكاً من ملوك بلاد الشام، يقودهم أمير قادش (على نهر العاصي) الذي يدعمه الميتانيون المتمركزون في الجزيرة. وقد تم الصدام في مدينة مجدو، قرب اللجون الحالية، الى الشرق من مدينة حيفا، حيث يلتقي، او يكاد يلتقي، مرج ابن عامر بالسهل الساحلي، وبسبب من موقعها الممتاز، فوق تل يصعب احتلاله، وبفعل حصانة اسوارها واشرافها على الطرق المتجهة الى جميع الجهات، فإن ضباط جيش الفرعون قد رفعوا الى مليكهم تقريراً يتلخص في ان الاستيلاء على مجدو يعادل الاستيلاء «على الف مدينة».

والحقيقة ان معظم قوات هذا الحلف قد كانت تتألف أساساً من الهكسوس الذين عادوا فاستقروا في فلسطين خلال حكم الملكة

حتشبسوت التي ورثها تحوتمس الثالث. فلقد كانت السلطة المصرية في عهد تلك الملكة متراخية بعض الشيء، مما جعل بقايا الهكسوس يتنمرون من جديد ويعاودون مد نفوذهم الى عاصمتهم القديمة شاروحين في جنوب فلسطين.

وحين التقى الخصمان قرب أسوار مجدو دارت الدائرة على الحلف الشامي، فهربت جيوش الملوك المتحالفين امام الهجوم الصاعق الذي شنته قوات الفرعون المظفرة، واتجه المهزومون صوب الأسوار ليجدوا سكان المدينة قد اغلقوا أبوابها في وجه الفارين. ولكن هؤلاء قد رفُعوا الى أعلى الاسوار بواسطة ثيابهم. بيد ان تحوتمس راح يحاصر المدينة حتى سقطت بعد سبعة أشهر على وجه التقريب.

وغنم الفرعون الكثير من الخيول والمركبات الحربية والاسلحة والمواشي والعبيد والاواني الذهبية . ورضخ الامراء المهزومون للفرعون فاخذهم رهائن كي يضمن ولاءهم للسياسة المصرية.

ويدلنا تقرير الغنائم التي غنمها الفرعون ان المدينة قد كان فيها قصر ملكي مملوء بالعبيد والاماء والاثاث والتماثيل والاواني الذهبية النفيسة. وهذا يعني ان فلسطين قد عرفت المدينة المزدهرة وحكومة المدينة منذ زمن لا نعرف بدايته الا على وجه التخمين. والحقيقة ان الحفريات التي اجريت في مجدو قد أثبتت ان الفنون كانت متطورة الى حد لا بأس به في تلك المدينة خلال اواسط الالف الثاني قبل الميلاد. فلقد اكتشفت كاتلين كينيون، وهي من أشهر الذين نقبوا عن الآثار في فلسطين، لوحاً من العاج عليه صورة عقاب، ولوحاً آخر عليه صورة ابي الهول الكنعاني، وكلاهما من فنون مجدو، وهما يرقيان الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

كما عثر المنقبون على نقوش في مجدو تمثل معركة بالعربات.

وبسقوط مجدو سقطت بلاد الشام كلها حتى مشارف مدينة قادش (تل النبي مندو حالياً، وهي على نهر العاصي الى الجنوب قليلاً من بحيرة حمص. وهناك مدينة اخرى تسمى قادش، وموقعها في جنوب فلسطين). بيد ان تحوتمس الثالث قد ظل يكرر القتال والهجوم حتى احتل مدينة قادش واعاد الحدود المصرية الى ما كانت عليه زمن تحوتمس الاول. وقد ثبت نصباً تذكارياً الى الشرق من الفرات في مكان قريب من النصب الذي ثبته سلفه الاسبق.

ويروي لنا واحد من ضباط الجيش المصري، واسمه جهوتي، مغامرة قام بها في فلسطين خلال احدى حملات الفرعون على بلاد الشام. لقد احتال جهوتي على امير يافا التي استعصت على الجيش المصري، اذ دعاه الى وليمة باذخة فأسكره ثم قتله غيلة وهو غائب عن الوعي لكثرة ما شرب من الخمر. وارسل بعد ذلك الى اميرة يافا من اخبرها بان زوجها قد ذبح القائد المصري وغنم منه خمسمائة من الاكياس المحشوة بالاشياء النفيسة. فما كان من الاميرة الا ان فتحت ابواب المدينة لتستقبل الغنائم، وبعدما دخلت الاكياس الى داخل يافا خرج منها خمسمائة جندي مصري، ففاجؤوا الحامية وأعملوا فيها السيف حتى أبادوها. وبذلك اصبحت يافا تحت سيطرة المصريين، فنهبوها وأسروا السكان واخذوهم عبيداً واماء لهم.

ولا يدري العقل ما اذا كانت هذه الحكاية من قبيل الامتاع والمؤانسة وجنوح الخيال البشري الى سرد النوادر والغرائب.

وبعدما تثبت النفوذ المصري في بلاد الشام كلها، فإنهم قد راحوا

يؤسسون المعسكرات على الاراضي الفلسطينية لتكون بمثابة دفاع مبكر عن مصر. ومن أهم معسكراتهم واحد في القدس وآخر في بيسان، حيث كانت لهم قلعة بنيت منذ عهد تحوتمس الثالث نفسه، ووظيفتها الدفاع عن مرج ابن عامر من جهة الشرق.والارجح ان مجدو التي تهيمن على مرج ابن عامر من جهة الغرب قد كانت حصناً مصرياً كبيراً هي الاخرى. ولا أدل على ذلك من تأثر الفنون الكنعانية في مجدو بالفنون المصرية. فلولا كثافة الوجود المصري في تلك المدينة لما تأثرت فنونها بالفن الفرعوني الى هذا الحد. ولكن وجودهم في بيسان قد اكده وجود قلعة بني الى جوارها معبد فرعوني صغير. وقد عثر المنقبون على لوحات هامة في ذلك المعبد. بيد ان المصريين لم يتدخلوا في الشؤون الدينية والاجتماعية والثقافية للناس، بل تركوا السكان ينعمون بحرية الاعتقاد وبممارسة حياتهم اليومية كما يشاؤون.

وقد ظل الحال على ذلك النحو حتى تولى العرش المصري فرعون ضعيف هو امنحوتب (امنوفيس) الثالث (١٤٠٥-١٣٧٢)، الذي تحكمت به، في أواخر عمره، زوجته الشابة الفاتنة تي، فقد شاخ الرجل كثيراً، ووقع في المرض، فاخذت الامور تتردى منذ العقود الاولى للقرن الرابع عشر (ق.م). ومما زاد في الطين بلة ان ابنه امنحوتب الرابع (اخناتون = الصالح لخدمة آتون) قد رشح نفسه لتأسيس دين جديد من شأنه ان يضمن الخلاص للبشرية، وفقاً لاعتقاد الملك. وهو دين لا يؤمن بالحرب، لان الحرب لا تجر الا الى حرب جديدة، بل يؤمن بالاخاء البشري الذي يمكن ان يتحقق اذا ما عبد الناس جميعاً الهاً واحداً هو آتون، الذي يتجلى في الكون بواسطة قرص الشمس. والحقيقة ان

اخناتون قد كان فناناً وشاعراً ولاهوتياً وعاشقاً اكثر مما كان ملكاً يصلح للسياسة والادارة.

وهكذا تراخت قبضة مصر على بلاد الشام، فأخذ الحثيون من عاصمتهم خاتوشا الواقعة في الاناضول الى الشرق من نهر الهاليس، يحرضون عبدي عشرتا، وهو ملك آموري من الطرف الشمالي لسوريا، على الثورة ضد النفوذ المصري الآخذ بالتراخي في بلاد الشام. وراح عبدي عشرتا هذا يزحف ويحاصر مدن الساحل السوري من الشمال، ثم يتقدم جنوباً وفي نيته الوصول الى الحدود المصرية. ويبدو ان عبدي عشرتا قد كان رجلاً مسناً، او ربما شاخ وهو يقارع أنصار الفرعون في الزاوية الشمالية الغربية من سوريا الراهنة. ولهذا فقد تخلى عن الامر لابنه ازيرو، وهو الشاب الداهية الطموح الذي كان في نيته ان يجعل من بلاد الشام قوة ثالثة تقف على قدم المساواة مع مصر والحثيين.

زحف ازيرو جنوباً بعدما تحالف مع الحثيين، وكذلك مع قبائل الخابيرو التي تحترف القتال، واستولى على المدن الساحلية في سوريا ولبنان حتى وصل الى جبيل التي آثر اميرها رب عدي الموالي لمصر ان يموت على ان يخون سيده الفرعون.

وتوالت الرسائل من ملوك بلاد الشام وامرائها على الفرعون تطلب النجدة ضد قوات ازيرو التي لا بد من انها قد كانت شديدة الكثافة بفضل ما قدمه لها الحثيون والخابيرو من دعم. وكان اخناتون قد هجر العاصمة المصرية طيبة، وبنى عاصمة جديدة للدين الجديد سماها أخت آتون (افق آتون)، وهي تقع في تل يسمى اليوم تل العمارنة، ان ما يسمى رسائل تل العمارنة هي مجموعة الرسائل التي عثر عليها المنقبون في عاصمة

اخناتون، والتي ارسلها امراء الشام الى اخناتون وسلفه امنحوتب الثالث من أجل الاستنجاد بمصر ضد عبدي عشرتا وابنه ازيرو.

ولكن اخناتون اصم أذنيه عن صرخاتهم التي التهمها الفراغ، فقد كان مشغولاً عن السياسة بتربية الوجدان البشري على الاخاء البشري من خلال عبادة الاله الاوحد المجرد المنزه الذي لا يقبل التجسيم.

ومن دهاء أزيرو انه قد اخذ يراسل الفرعون هو الآخر ويقسم له باغلظ الايمان انه وحده المخلص للملك، وان جميع الامراء الذين شكوه الى سيده كاذبون، فضلاً عن انهم غير مخلصين للعاهل المصري. ولا ريب في ان اخناتون الشديد الذكاء قد كان يعرف الحقيقة، ويعلم ان أزيرو كاذب وحسب. ولكن الملك الذي اعتبر نفسه مرسلاً من الله لتخليص البشر قد راح يظن بان ما يقوم به هو عمل أرفع بكثير من ان يسمح له بالالتفات الى أفعال طامح صغير مثل أزيرو.

وعلى اية حال فقد زحف أزيرو الى الجنوب يدعمه الحثيون والخابيرو، وكذلك ملك قادش الذي انضم الى الحركة بعد نجاحها. ووصل هذا الجيش المتحالف الى شمال فلسطين وضمه الى سلطته، واقام في الجليل التحصينات الضخمة القادرة على مواجهة الفرعون حين يتجه شمالاً لقمع الثورة. وهكذا اصبح الجليل جبهة وحصناً كبيراً للدفاع عن لبنان وسوريا. بيد ان قوات الحلف لم تهبط الى مرج ابن عامر من مرتفعات الجليل، اذ يبدو ان قوات المصريين قد كانت كثيفة في المرج، فضلاً عن ان عرباتهم الحربية تمتلك قدرة ممتازة على المناورة في السهل.

أما بقية فلسطين من مرج ابن عامر وجبل الكرمل شمالاً، وحتى غزة جنوباً، فقد ظلت على ولائها لمصر. لقد احجم أزيرو عن التقدم الى

اواسط فلسطين، واكتفى بالجليل الذي يصعب اقتحامه.

كان المصريون قد شطروا بلاد الشام الى ثلاثة اشطار سياسية، وذلك على النحو التالي:

اولاً ـ الشطر الشمالي ويسمى آمورو، وكان مركز حاكمه المصري في سيميرا الواقعة الى جوار ارواد.

ثانيا ـ الشطر الاوسط ومركزه في كومودي، التي هي كامد اللوز حالياً في البقاع الغربي. وهو يشمل مدينة دمشق، وكذلك الجليل.

ثالثاً ـ الشطر الجنوبي وقد أسماه المصريون كنعان، ويشمل فلسطين من دون الجليل وقد كان مركز الحاكم المصري في غزة. ولقد ظل هذا الشطر موالياً لمصر طوال تاريخ الدولة الحديثة، او حتى مجيء قبائل البلستو الى الساحل الفلسطيني.

وفي أواخر القرن الرابع عشر (ق.م) تلاشت الاسرة الثامنة عشرة في مصر وحلت محلها الاسرة التاسعة عشرة. وكان مؤسس الاسرة الجديدة رجل عجوز، يسمى رمسيس الاول، لم يحكم اكثر من عامين. فتوفي ليخلفه ابنه القوي سيتي الاول عام ١٣١٦ق.م.

ما ان وصل هذا الملك الى العرش حتى راحت التقارير تنهال عليه من الولاة في فلسطين. وكان أهم ما فيها ان قبائل الخابير و قد زعزعت الامن في البلاد وضغطت على السكان فهاجر الكثير منهم الى مصر نفسها. والحقيقة أن الخابير و كانوا قد هاجموا فلسطين في عصر اخناتون واحتلوا شكيم زهاء عام ١٣٦٠ ق.م. ثم هاجموا القدس فاستنجد ملكها عبد خيبا باخناتون ابتغاء صدهم عن المدينة، بيد ان اخناتون لم يستجب للامر. ومع ذلك فان المدينة لم تسقط بفضل قوة المعسكر المصري المرابط

هنـاك. وقـد ظل الخـابـيـر و يعيشـون فسـاداً في فلسطـين حتى ظهور سيتي الاول. وهذا موضوع سوف تعود اليه المقالة الراهنة مرة اخرى.

وعلى اية حال فقد تحرك الفرعون وداهم جنوب فلسطين واحتله وثبت الامن بين ربوعه، ثم زحف شمالاً واحتل مدينة مجدو مرة اخرى. ولكنه سار شرقـاً هذه المـرة متجنبـاً التـورط بحصون الجليل المنيعة، فوصل الى حوران حيث اقام نصباً تذكارياً. ومن حوران زحف غرباً حتى وصل الى بير وت، او الى الجنوب منها. وتلك حركة التفاف على الجليل لا شك في انها بارعة. اذ يكون الفرعون قد عزل ارض الجليل وحصونه عن لبنان وسوريا وبعدما خضعت له صور وبير وت زحف شمالاً حتى سيميرا قرب ارواد ثم قفل عائدا الى مصر بعد هذا النصر الكبير.

بيد ان سيتي الاول سرعان ما انقض على فلسطين من جديد بعدما نقض بعض الامراء المعاهدات المعقودة بينهم وبين الفرعون. وقد تعمد الفـرعـون هذه المـرة أن يجابـه الجليـل المحصن بالقـلاع في حرب مبـاشرة سافرة، وبالفعل تمكن الملك الباسل من تدمير قلاع الجليل وتحصيناته، وبالتالي من ضمه الى النفوذ الفرعوني مرة اخرى.

ولم يتـوقف الغـازي في الجليـل طويـلاً بعـد ارضـاخـه، اذ تحرك شمالاً واصطـدم قرب مدينـة قادش ببعض فصـائـل الجيش الحثي فانتصر عليها وثبت حدود مصر على مشارف حمص في الداخل، والى الشمال من ارواد وسيميرا في الساحل. واهم ما في الامر انه وضع حدا لزحف الحثيين على فلسطين، ولا سيما على الجليل. بيد ان هؤلاء قد تكاثروا في فلسطين بالفعل، وخاصة في مدينة الخليل التي قالت عنها التوراة انها مدينة حثية. غير ان هذا الوجود الحثي في فلسطين قد تم عبر التسلل السلمي على

الارجح. ومع ذلك فإن من المحتمل ان يكون بعض الحثيين قد دخلوا الى اواسط فلسطين وشطرها الجنوبي مع الخابيرو الذين داهموا منطقة الضفة الغربية في عصر العمارنة.

وبعد وفاة سيتي الاول ورثه ابنه رمسيس الثاني (رع موزه = رع يولد). فما كان من الملك الجديد الا ان قام بحملة على بلاد الشام. وفي البداية اتجه شمالا حتى وصل الى بيروت. وتخليداً لهذه الحملة فقد سجل اخبارها على صخرة عند مصب نهر الكلب الى الشمال قليلاً من العاصمة اللبنانية.

وحين حاول الحثيون ان يغيروا خط الحدود بين الدولتين، وهو الخط الذي ثبته سيتي الاول، فقد تحرك رمسيس الثاني الى فلسطين ومنها الى لبنان ثم الى حمص حيث اشتبك مع الحثيين عند مدينة قادش. ومع ان كلاً من الطرفين قد زعم النصر لنفسه، فان المعركة قد كانت متوازنة، على الارجح. ولما كان الآشوريون قد آنسوا ضعفاً من الامبراطوريتين الكبيرتين، الحثية والفرعونية، وبما انهم قد اخذوا ينمون عن نشاط عسكري جديد، فقد ازمع الجانبان الحثي والمصري على ابرام معاهدة صلح تعهد بموجبها كل من الطرفين ان يعاضد الآخر اذا ما تعرض لاي هجوم من جبهة ثالثة. ثم تزوج رمسيس الثاني من ابنة الملك الحثي موتيلي. واستتب السلام بين الدولتين حتى زوال المملكة الحثية على ايدي البلستو.

بيد ان حروب الفراعنة في فلسطين لم تنته بوفاة رمسيس الثاني الذي خلفه ابنه مرنفتاح. فلقد داهم هذا الفرعون فلسطين واحتل مدينة جازر (تل الجزر) واوقع بها كارثة مريعة، وسمي نفسه «قاهر جازر». وجاء في

نص دوّنه بعد عودته من فلسطين قوله: «كنعان استلبت بقسوة، عسقلون تم الاستيلاء عليها، وجازر قد اخذت، بنوعام اصبحت كأنها لم تكن، اسرائيل اقفرت وليس بها بذرة».

ان هذا النص الذي يرقى الى عام ١٢٢٠ ق.م، قد لفت انتباه المؤرخين طوال الاعوام التسعين الاخيرة. فقد اكد بعضهم ان «اسرائيل» كانت على قيد الوجود في ذلك العهد. بيد ان دحض هذا الزعم أمر شديد السهولة. فكلمة «اسرائيل» كنعانية الهوية، وهي تتألف أصلا من كلمتين، اولاهما «اسرا» بمعنى «اسير»، أو عبد، وثانيتهما «إيل» وهي اسم الاله الكنعاني الاكبر وابو الالهة الكنعانيين جميعاً وهذا يعني ان «اسرائيل» معناها «عبد إيل»، او عبد الله.

والسؤال المهم الآن هو هذا:

لماذا لا تكون «اسرائيل» المذكورة في هذا النص المتحدر من عصر مرنفتاح هي مدينة كنعانية سكانها كنعانيون يعبدون الاله إيل وليس الاله يهوا ؟ فالحقيقة انه لا وجود للديانة اليهودية أبداً الا حيثما وجد الاله يهوا ولهذا فان من المريب تماماً ان تكون امارة «اسرائيل» المتمركزة حول شكيم (قرب نابلس) امارة يهودية، والارجح انها لم تعرف الديانة اليهودية حتى زوالها على يد سرجون الآشوري في اواخر القرن الثامن (ق.م). بل يبدو ان الديانة اليهودية في صيغتها الراهنة لم تبرز الى حيز الوجود الفعلي الا في القرن الخامس (ق.م)، اما قبل ذلك فربما كانت هناك طوائف متباينة ومتشابهة في الوقت نفسه تتعايش فوق الارض التي تسمى بالضفة الغربية والارجح ان منطقة السامرة (نابلس) قد كانت تعبد الاله «ايل» وليس

الالـه يهوا. فالحقيقـة ان مدينـة شكيم التي يتبعهـا النصف الشـمالي من الضفـة الغـربيـة، او التي تقـع في منتصف امـارة «اسرائيل» القديمة، ان تلك المدينة قد كانت واحدة من اكبر مدن الكنعانيين في فلسطين، ان لم تكن اكـبرهـا، على الاطـلاق. وفضـلاً عن قوتهـا السياسية والاقتصادية والعسكـريـة فقـد كانت شكيم مركـزاً دينياً كبيراً في الالف الثالث والثاني (ق.م). ولا يستبعـد ان تكـون المـدينـة قد طورت ضربـاً من العبـادة التوحيدية التي تتصور الاله الواحد منزهاً ومجرداً وغير قابل للتجسيد، بيد ان هذا الاله قد ظل يسمى «ايل» بحيث لم يتغير اسمه قط.

اما يهوا فهو دون ادنى ريب اله منطقة القدس، او المنطقة التي تسمى «اليهودية» Judea وهو بكل توكيد اله وافد على فلسطين جاءها من الخارج في زمن لا يمكن تحديده على وجه الدقة. ويبدو ان هذا الاله قد كان يحمـل بعض السـمات الشبيهـة بالالـه «ايـل»، بعد تطوير هذا الاخير في مدينـة شكيم. ويبـدو ان الـوحـدة السيـاسية التي ربما حدثت في زمن من الازمان، ربما في القرن العاشر (ق.م)، قد اوجبت توحيد الالهين في اله واحد. وهكذا حذف ايل وحل محله يهوا اله مدينة القدس الطارىء. اما لماذا حذف ايل الشكيمي وحل محله يهوا الاورشليمي فذاك عائد لسبب سياسي خالص. فيبدو ان اورشليم قد صارت عاصمة للضفة الغربية، او للكتلة الجبليـة الـواقعـة بين مرج ابن عامـر شمالاً وصحراء النقب جنوباً، وبين السهل الساحلي غرباً وغور الاردن شرقاً.

ان العـاصمـة قد فرضت يهوا المكتـظ بالامـراض، فرضتـه الهـاً على المملكـة كلهـا، والارجـح ان المملكـة قد عادت وانشطرت الى شطرين، احدهما جنوبي والآخر شمالي. بيد ان يهوا قد ظل يهيمن على الشمال هذه

المرة ولم يخضع للازاحة قط، ولو ان المنطقة الشمالية لم يعد دينها يتطابق مع دين الجنوب. فطائفة السامريين، وهي بقايا اليهود الشماليين، تختلف عقائدها اختلافاً جوهرياً عن المعتقدات اليهودية الاخرى في زمننا هذا.

ان ما يؤكد لنا ما فحواه ان منطقة شكيم، أو «اسرائيل» قد كانت لها ديانة خاصة تختلف جوهرياً عن ديانة يهوا المستتبة في اورشليم، هو ان سفر التكوين، وهو على الارجح سفر كنعاني محض، لحقه بعض التحوير والتحريف على ايدي الكهنة فيما بعد، ولا سيما على يد عزرا في القرن الخامس (ق.م)، ان سفر التكوين يخلو خلواً تاماً من اي ذكر ليهوا. والحقيقة ان هذا الملاحظة قل ان لاحظها احد، وربما لم يستفد منها احد قط، على الرغم من فائدتها الجلى في التوكيد على الاصل الثنائي للتوراة. والحقيقة ان سيغموند فرويد قد لاحظ هذه المثنوية التوراتية في كتابه المعروف، «موسى والتوحيد»، ولكنه لم ينتبه الى مسألة فحواها ان يهوا لا يظهر في التوارة قبل سفر الخروج، الذي هو سفر موسى الطارىء على فلسطين.

لماذا يكون لسفر التكوين اله يختلف عن اله سفر الخروج وبقية التوارة، لا بالاسم وحسب، ولكن في الجوهر والمضمون بالدرجة الاولى؟ ان هذا دليل قاطع على ان اتباع يهوا الوافدين الى فلسطين في زمن من الازمان قد اتحدوا اتحاداً جزئياً بقوم من الكنعانيين المتطورين دينياً الى حد بعيد، فما كان من الطارئين الا ان تبنوا شيئاً من تراث الطائفة الكنعانية وادمجوه في تراثهم، ولكنه ظل ناتئاً متمايزاً عن تراث الطارئين.

ولسوف تعودُ هذه المقالة الى الموضوع اياه مرة أخرى، بعدما تعرض لبرهة جديدة من تاريخ فلسطين، وبهذه البرهة ينتهي التاريخ الكنعاني

القديم وتدخل فلسطين في طور آخر يختلف عن الطور السابق بعض الاختلاف.

ثامناً ـ البلستو يغزون فلسطين

في اواخر القرن الثالث عشر (ق.م) ، تحرك طوفان بشري كبير من جزائر النصف الشرقي للبحر المتوسط واخذ يهاجم مصر التي تصدت له بقيادة مرنفتاح وردته عن شواطئها وحدودها الغربية.

بيد ان طوفاناً اكبر وازخم سرعان ما راح يتفجر من جديد في اوائل القرن الثاني عشر، يوم انقضت شعوب البحر على الانضول ودمرت العاصمة الحثية، خاتوشا، الى الابد. ثم تابعت هذه الشعوب زحفها متجهة صوب الجنوب لتجتاح كركميش (جرابلس) واوغاريت (راس شمرا) وارواد، ولتصل اخيراً الى الحدود المصرية بعدما هيمنت على الساحل الفلسطيني كله.

واصطدمت مصر، بقيادة رمسيس الثالث، بهذه الشعوب البحرية القادمة من الجزر الايجية، وهزمتها في معركتين، اولاهما في البر وثانيتهما في البحر، وذلك زهاء عام ١١٩٠ ق.م. غير ان الفرعون المنتصر قد سمح لبعض هذه الشعوب بالاقامة والاستيطان في الشطر الجنوبي من الساحل الفلسطيني. فتوطن شعب البلستو، الذي جاء من جزيرة كريت، على الشريط الساحلي بين يافا وغزة، كما توطن شعب آخر يسمى التجكر الى الجنوب من جبل الكرمل، الذي صار فاصلة تحجز بين الفينيقيين والقادمين الجدد. وهكذا تشكل اقليم «فلستيا» على الساحل السهلي

الممتد بين حيفا شمالاً وغزة جنوباً، ثم راحت هذه اللفظة توسع مساحتها الجغرافية عبر الزمان لتشمل فلسطين كلها.

لقد توطن البلستو في خمس مدن فلسطينية هي غزة وعسقلان وعقرون واسدود وجت. بيد ان هذه المدن قد حافظت على اسمائها الكنعانية خلال ذلك العهد كله ونظم البلستو مدنهم الجديدة على هيئة ممالك مستقلة، في اداراتها وحكومتها. الا ان هذا الاستقلال لم يمنع المدن الخمس من ان تعرف ضرباً من ضروب الاتحاد، ربما كان مركزه في مدينة اسدود.

ولم يبتعد البلستو عن البحر كثيراً، وذلك بحكم كونهم شعوباً بحرية تجهل البراري ولا تستسيغ المناخ الجاف، وبما ان الساحل الذي لا يبتغي القادمون الجدد ارضاً سواه قد كان ممتلئاً بالمدن العامرة، فان البلستو لم ينشؤوا من المدن سوى اثنتين وحسب، وهما اللد وزكلاج التي تقع الى الشمال من بئر السبع. غير انهم قد توغلوا قليلاً في داخل فلسطين واستولوا على بعض المدن الكنعانية الصغيرة التي لا تبعد كثيراً عن ساحل البحر. وفوق ذلك، فقد تسلطوا من دون احتلال على بعض من ابعد المدن عن البحر، ولا سيما مدينة بيسان الراخمة على الضفة اليمنى لنهر الاردن.

كان البلستو يتقنون صناعة المعادن ويستخدمون الاسلحة الحديدية على نحو استثنائي، بل لقد احتكروا صناعة الحديد لانفسهم، ولا ادل على حقيقة ذلك من انهم قد تركوا الكثير من البقايا المعدنية، ولا سيما المطارق والازاميل والادوات الزراعية. ولا شك في انهم استخدموا العربات الحديدية في القتال مما كان له اثر كبير على الانتصارات

العسكرية التي احرزوها في فلسطين.

وفضلاً عن ذلك فقد كانوا قراصنة مرهوبين وبحارة ممتازين. غير انه لا يمكن التسليم بصحة الادعاء الذي ادعاه فيليب حتّي، ومفاده ان البلستو قد «اعطوا جيرانهم وورثتهم الفينيقيين ميلاً الى الاسفار البحرية البعيدة..». فالحقيقة ان النشاط البحري الفينيقي، او الكنعاني، قد تسارع منذ القرن الخامس عشر (ق.م)، اي قبل مجيء البلستو الى فلسطين بثلاثة قرون. اذ من الثابت انه قد كانت للفينيقيين صلات متينة مع كريت واليونان والاناضول ومصر منذ أواسط الالف الثاني قبل الميلاد، وربما منذ عهد الدولة الفرعونية الوسطى، بل ربما قبل ذلك بكثير. ومن الوثائق التاريخية الهامة ان السفينة الفينيقية قدرسمت على جدران بعض المباني المصرية منذ عام ١٤٠٠ق.م. وما دام المصريون قد سموا الفنيقيين «فنخو»، اي صناع السفن، فان الفينيقيين هم الذين نقلوا فن الملاحة والاسفار البعيدة الى شعوب البحر، وليس العكس.

والحقيقة ان أهم دور لعبه البلستو في حضارة حوض البحر المتوسط برمته هو تطوير استعمال الحديد ونشره على نطاق واسع. فلقد أدخل الفينيقيون الحديد في بنية سفنهم، فصارت السفينة الفينيقية أقدر على الملاحة من ذي قبل. اما النشاط البحري للبلستو فقد اخذ يتلاشى بالتدريج بعد استقرارهم في سواحل فلسطين.

وسرعان ما اقتبس البلستو الديانة الكنعانية، فعبدوا داجون او دجن، بوصفه الهاً للحبوب في أسدود، والهاً للسمك في غزة. اما عسقلان فقد جعلوا منها مركزاً لعبادة عشتار الكنعانية.

ومع الزمن اخذ البلستو يذوبون في الثقافة الكنعانية ذوباناً تدريجياً،

غير ان لغتهم الخاصة قد استمرت في الوجود حتى القرن الخامس قبل الميلاد. ولا يعرف المؤرخون متى زالت تلك اللغة على وجه الدقة.

تاسعاً ـ ماذا عن الخابيرو والعابيرو ؟

كيف تأسست الديانة اليهودية ؟ كيف تأسست الامارتان اليهوديتان في القدس ونابلس؟ هل تشكلت الديانة اليهودية في مصر، ام في الشام، أو في القطرين معاً؟ هل اليهود من أصل سامي، أم هم خليط من أجناس كثيرة؟ إن المؤرخ المعاصر لا يملك القدرة، ولا الأسانيد الموثوقة، للاجابة على نحو يقيني عن أي من هذه الاسئلة على الاطلاق. وليس ثمة من مصدر يجيب عن معظم هذه الاسئلة الا التوراة. ولكن التواراة كتاب خرافي لا يعتد به ولا يجوز لمؤرخ أن يصدر عنه الا على حذر وريبة، والا على نحو احتمالي وحسب (٤).

فلعل أهم خبر ينبغي أن يعرفه المرء عن التوراة هو أنها قد كتبت أو أعيدت كتابتها في القرن الخامس (ق.م)، وذلك على يد كاهن يسمى عزرا الكاتب الذي ورد ذكره في هذه الاية القرآنية: «وقالت اليهود عزيز ابن الله».

في اي ظرف كتبت التوراة، أو أعيدت كتابتها، في القرن الخامس (ق.م)؟

بعد سبي اليهود الى بابل حاولت الدولة الأكمينية أن تعيدهم الى فلسطين ليكونوا بمثابة قوة موالية للدولة الناشئة ومعادية للحزب المصري المعادي للأكمينيين. فلقد احتل الأكمينيون مصر. في عهد كمبيز عام

٥٢٥ ق.م. وبعد ذلك بعشر سنوات أعيد اليهود الى فلسطين في عهد دارا، أو قل اعيدت أول دفعة منهم الى القدس. بيد أن مصر قد ثارت على الأكمينيين في اواخر عصر دارا الأول الكبير، وهو الذي وافته منيته قبل أن يتمكن من إخضاع مصر. غير أن ابنه ووريثه أحشويرش (الذي أسماه الاغريق زركسيس) قد فتك بمصر وأخمد الثورة بقسوة زهاء عام ٤٨٠ ق.م. ولكن مصر قد ثارت من جديد في عهد خلفه ارتحششتا الأول وذلك عام ٤٦٠ ق.م. ومن المعروف أن ارتحششتا هذا قد سيطر عليه اليهود، وزوجوه من امرأة يهودية تسمى استير التي أسهمت اسهاماً كبيراً في إعادة اليهود الى القدس. ويبدو أن الملك الأكميني قد كان واثقا من ولاء اليهود لسياسته الداخلية والخارجية، فجند منهم بعض الحاميات العسكرية التي اقتحمت مصر ودوختها في قتال طويل انتهى بخضوع المصريين للسيادة الأكمينية. وراحت الدولة بعد ذلك تتبنى سياسة اعادة اليهود الى فلسطين ليكونوا سداً منيعاً ينتصب في وجه المصريين، وكذلك في وجه الحزب الموالي للمصريين في بلاد الشام. إذ من المعروف جيداً أن الكنعانيين من أوغاريت الى غزة قد كانوا يؤثرون التحالف مع مصر على اي تحالف آخر. ولا عدو للكنعانيين يومذاك الا اليهود.

وهكذا فقد عادت دفعتان يهوديتان جديدتان الى القدس، أولاهما بقيادة نحميا وثانيتهما بقيادة عزرا. بيد أن أهالي فلسطين قد عارضوا عودة اليهود منذ أيام كورش ودارا الأول، وقد ظلوا على معارضتهم حتى أيام عزرا [٥]. بيد أن الحكومة الأكمينية قد فرضت وجود اليهود على الفلسطينيين يومذاك تماماً كما فرضته الحكومة البريطانية في اواسط القرن العشرين.

إذن، لقد راح عزرا، المتنفذ في البلاط الاكميني، يكتب التوراة في ظرف تحكمه حقيقتان جوهريتان:

أولاهما أن ثمة شعوباً كثيرة في الامبراطورية الأكمينيةتكرهالسلطة الأكمينية وتود أن تتخلص من نيرها البغيض. وأهم هذه الشعوب المصريون والكنعانيون والبابليون والآشوريون والعيلاميون. وبما أن عزرا (وكذلك نحميا، ومن قبله دانيال) قد كان الناطق الثقافي الرسمي باسم البلاط الأكميني، فان التوارة قد راحت تشتم وتشوه جميع الشعوب الأنفة الذكر. وعلى هذا الضوء، نملك أن نفسر الحقد الذي صبته التوارة، بوجه خاص، على مصر وعلى حليفتها كنعان، والأرجح أن اسطورة موسى قد ابتكرها عزرا ليؤلب جنود الفرقة اليهودية على المصريين، بوجه أخص، وهم ألد أعداء الأكمينيين في الشرق كله. ولهذا كان لا بد من أن يقال لموسى: «ان فرعون قد طغى». وهذا هو المبدأ الذي قامت عليه السياسة الأكمينية تجاه بابل ومصر بالدرجة الاولى. فقد أشاع كورش نفسه يوم استولى على بابل أن ملكها قد طغى، ولهذا أمر الله نفسه بإزالة ملكه.

أما ثانيتهما فتتلخص في أن أهل فلسطين قد تصدوا لليهود العائدين من بابل، فما كان من عزرا الا أن صمم التوراة بحيث تخدم غرضاً أساسياً فحواه اقناع الناس بأقدمية اليهود في فلسطين. وهكذا اخترعت اسطورة ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف. والجدير بالملاحظة أن الصهاينة تنزع هذه الأيام نحو هذا المنزع نفسه. فلم يدخر الصهاينة جهداً لاقناع الناس في العصر الراهن بأن وجودهم في فلسطين يرقى الى أس التاريخ، بل حتى الى أس الدهر.

وأياً ما كان الشأن، فانه ما من أحد في زمننا هذا يملك أن يعرف ما حذفه عزرا وما أضافه الى التوراة. بل ما من أحد يعرف ما اذا كان للتوراة أي وجود قبل عزرا أم لم يكن.

وهذا يعني أن التوراة لا يمكن أن تكون مصدراً تاريخياً موثوقاً أبداً. ففضلاً عما في أسفارها من تناقضات وخرافات يزري بها العقل، فإن من المتعذر أن نفصل بين أخبارها المدسوسة وغير المدسوسة. ولا بأس في أن نأخذ مثلاً واحداً على المدسوس ليتأكد العقل من أن التوارة لا يجوز الاعتماد عليها الا في بعض المواضع القليلة وحسب.

جاء في الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين أن كودر لاعومر ملك عيلام (وهي اقليم في الشطر الغربي من ايران كان الأكمينيون قد احتلوه وظلموا أهله ونهبوهم) قد هاجم فلسطين متحالفاً مع ملوك آخرين منهم ملك شنعار، أو السهل الجنوبي العراقي. وقد اقتتل مع بعض الملوك في فلسطين وانتصر عليهم وسبى من فلسطين خلقاً كثيراً. وكان لوط، وهو ابن لشقيق ابراهيم، من بين المسبيين. ولما سمع ابراهيم بالنبأ جمع خدمه وعددهم ٣١٨ من المقاتلين، وسار بهم الى ملوك العراق وعيلام مدعوماً بثلاثة رجال آخرين من الآموريين. ولحقت كتيبة ابراهيم الصغيرة والمرتجلة بالملوك وجيوشهم الجرارة وقاتلتهم وانتصرت عليهم واستردت منهم الأسلاب كلها، وعادت سالمة غانمة ومعها لوط الغالي على ابراهيم.

هكذا وبهذه السذاجة الطفلية الواهنة أراد عزرا أن يقنع الفلسطينيين بأقدمية اليهود في فلسطين.

ولـلعقـل، ازاء هذا الخـبر، أن يسأل جملة من الأسئلة: هل للملوك

الذين يذكرهم الاصحاح الآنف الذكر أيها وجود خارج سفر التكوين ؟

هل عاش هؤلاء الملوك ـ إن كانوا قد عاشوا على الاطلاق ـ في عصر ابراهيم الذي تعطيك التوراة ملء الحق والصواب لتقول بأنه قد كان في القرن الثاني عشر، أو الحادي عشر (ق.م)؟

هل يمكن لكتيبة صغيرة من الرعاة والخدم غير المحترفين للقتال أن تهزم جيوشاً جرارة تحترف الحرب وتجيدها ؟

هل كان ابراهيم ورعاته يتقنون الكتابة لكي يقال بأنهم قد دونوا الخبر فتحدر الى زمن عزرا ؟ كيف صينت الأخبار اليهودية من الضياع أو من التحريف ما دام ابراهيم واسحق ويعقوب مجرد رعاة لا يتقنون الكتابة ولا القراءة ؟

لئن كان أشور بانيبال (وهو ملك آشوري من القرن السابع قبل الميلاد) قد ذكر في تواريخه ـ كما يزعم الخوري عيسى أسعد في كتاب له عنوانه «تاريخ حمص» ـ أنه غزا مدينة سوسا عاصمة عيلام ودمرها بعد مضي ثلاثة عشر قرناً على غزو كودر لاعومر، فهذا يعني ان كودر لاعومر قد عاش في القرن العشرين قبل الميلاد، أي قبل عصر ابراهيم بتسعمائة سنة، فكيف تمكن ابراهيم من أن يحارب رجلاً عاش قبله بزمن طويل ؟

ثم هل ذكر آشور بانيبال أن كودر لاعومر قد غزا فلسطين عل وجه التحديد، أم تراه تحدث عن غزوة ما من غزوات كودر لاعومر ؟

لماذا لا يكون خبر الغزوة العيلامية العراقية المشتركة لفلسطين قد وصل الى آذان دانيال ونحميا وعزرا يوم كانوا في بابل، عاصمة سهل شنعار، فاستغلوه ليخدم اغراضهم النهائية في إقناع الفلسطينيين المناهضين لعودة اليهود الى القدس بأن الوجود اليهودي في فلسطين هو من

القدم بحيث يرقى الى غابر العصور وسالف الدهور؟ ألم تحاول التوراة أن تجعل من اليهود أحفاداً لنوح الذي عاصر الطوفان ؟ والطوفان في ذهن الناس يومذاك هو أقدم حادث تعيه ذاكرة البشرية. وكل شيء يخص سيرة نوح قد أخذ من المصادر السومرية، ولا صلة لليهود به على الاطلاق. ومع ذلك فقد راح عزرا ينسب اليهود الى ذلك العهد الاسطوري كي يقنع الفلسطينيين - و ربما اليهود قبل سواهم - بأنه أحفاد ابراهيم يمتون بصلة الى اقدم عصر بشري معروف.

★ ★ ★

والآن، ماذا عن العابير و والخابير و الذين يعتقد بعض الباحثين بأنهم اسلاف اليهود؟

يقول السير ألن غاردنر في كتابه الممتاز، «مصر الفراعنه»، ان العابير و والخابير و «اصطلاح شامل أطلق على المنبوذين أو العصابات التي لا تنتسب الى أية مجموعة جنسية محددة - وهم يظهرون في النصوص المصرية كأسرى آسيويين يستخدمون في المحاجر» (ص٢٢٨ من الترجمة العربية).

أما فيليب حتي فيقول في «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين»، وهو كتاب ممتاز لولا اعجاب مؤلفه [٦] بالأخلاق اليهودية والتراث اليهودي، ولولا اتخاذه من التوراة مصدراً تاريخياً موثوقاً، يقول في الجزء الأول:

«يوصف العابير و في وثائق نوزي من القرن الخامس عشر (ق. م) بأنهم عبيد أصبحوا كذلك باختيارهم، وتظهر هذه الكلمة في المدونات المصرية من حوالي ١٣٠٠ - ١١٥٠ (ق. م) بشكل عبير و EPiru (بحرف P) مما يثير الشك في صحة المعادلة بين الخابير و والعبرانيين. ويظهر الخابير و

لأول مرة في الحوليات الحثية في عهد مرشلش الأول حوالي ١٦٠٠ ق.م الذي استأجرهم. وفي رسائل تل العمارنة نرى الخابيرو يتعاونون مع المتمردين ضد الفراعنة، وفي ١٣٦٧ يستولون على شكيم. وقد وجهت ستة من هذه التحارير (رقم ٢٨٥-٢٩٠) من عبد خبا، تابع فرعون في اوروسالم (اورشليم) الى اخناتون يعبر فيها عن ولائه ويطلب المساعدة ضد الخابيرو الذين يهددونه. وفي جميع هذه الوثائق يبدو الخابيرو كجماعة متعددة العناصر ودون أوصاف مشتركة، ومعبأة دون شك في بلاد الرافدين. وقد أطلق هذا الاسم هناك لأول مرة على المحاربين في عهد نارام سن (نحو ٢١٧٠ ق.م) من ملوك السلالة الأكادية القديمة. ويذكر الاسم ثانية في رسالة من ماري من القرن الثامن عشر، وفي ألواح نوزي من القرن الخامس عشر. وكما يبدو فانه ليس إسماً عرقياً، وإنما تسمية أطلقت على جماعات من الرحّل والأجانب والأشقياء المستعدين للانضمام الى صفوف أي جيش لقاء أجرة أو بدافع الحصول على الغنائم.» (ص١٧٢-١٧٣ من الترجمة العربية).

واضح تماماً من هذا النص المنبثق من الوثائق التي لا يرقى اليها ريب أن الخابيرو مجرد مرتزقة وعصابات، وليسوا شعباً ذا ثقافة موحدة، وأنهم قد دخلوا فلسطين محاربين خلال القرن الرابع عشر، أو في زمن اخناتون، والأهم من ذلك كله أنهم جاؤوا من العراق وليس من مصر. أما العبرانيون فتزعم التوراة أنهم جاؤوا الى فلسطين من مصر وليس من العراق، وفي القرن الثالث عشر، أو الثاني عشر، وليس في القرن الرابع عشر، ما داموا قد بنوا لرمسيس الثاني مدينة المخازن التي لا يمكن أن تكون قد بنيت قبل القرن الثالث عشر، أو بعد وفاة أخناتون بستين سنة أو

أكثر. وهذا يعني أن الخابيرو ليسوا العبرانيين على الاطلاق.

ومن المؤكد أن الخابيرو قد كانوا حلفاء للحثيين ولعبدي عشرتا وابنه أزيرو في زمن العمارنة. وبينما كان الحثيون يدخلون فلسطين من الشمال، ومعهم جيش أزيرو، فان الخابيرو قد دخلوها من الجنوب، واحتلوا شكيم (قرب نابلس). ومن المؤكد أن الملك سيتي الاول قد حاربهم زهاء عام ١٣١٥ ق.م، وربما كان قد قضى على تماسكهم قضاء مبرماً.

ومن المحتمل أن يكون أزيرو، بعدما سيطر على جبيل، أو حتى بعدما سيطر على الجليل، قد أرسل الخابيرو الى ما وراء نهر الاردن ليقتحموا فلسطين من أواسطها ولينقلوا الحرب الى قرب الحدود المصرية نفسها. ولكن لماذا لم ينقض الخابيرو على اواسط فلسطين من الجليل؟ ربما لأن الجيوش المصرية قد كانت كثيفة في مرج ابن عامر الذي يفصل الجليل عن أواسط فلسطين، ولأن القتال في جبال الضفة الغربية أسهل على العصابات منه على الجيوش النظامية.

لقد استطاع الاركيولوجيون أن يجمعوا أجزاء نص من مدينة أوغاريت في كتاب يتألف من خمسة فصول شعرية. وقد أطلق على هذا الكتاب عنوان «اللآلىء». وربما كان ايلي ميلكو، مؤلف الكتاب ورئيس كهنة أوغاريت، هو الذي عنونه بهذا العنوان.

وبما أن اوغاريت قد هدمت على ايدي البلستو عام ١١٩٠ ق.م، فان النص بالبداهة ينبغي أن يكون قد كتب قبل ذلك الزمن. بيد أن من المحتمل أن تكون اوغاريت قد أعيد بناؤها بعد دمارها على أيدي البلستو، مما يعني أن «اللآلىء» قد كتبت، أو أعيدت كتابتها، في زمن لاحق.

وعلى أية حال، فإن مدار النص على الأحداث التي جرت في بلاد الشام خلال عهد اخناتون وانتفاضة عبدي عشرتا ضد السلطة الفرعونية. (وقد ترجم الكتاب الى العربية ونشر في بيروت سنة ١٩٨١).

يتحدث الكتاب عن العبرانيين على نحو صريح في اواخر الفصل الأول، بل يتحدث عن قوم يسميهم «اليوديم» في أواخر الفصل الثالث. وفي هذا الموضع الأخير نفسه نراه يذكر «ذلك الشعب الذي يستمد قوته من الشريعة». كما يتحدث في الفصل الأول، وفي موضعين أو اكثر، عن «مريام الشمالية» التي يظن بأنها فلسطين الشمالية نفسها، أو الجليل الذي احتلته قوات أزيرو بالفعل.

أما «العبرانيون»، فالأرجح أنها لفظة لم ترد قط في النص الاوغاريتي نفسه، وربما وردت فيه لفظة «خابيرو» فراح المترجم (العربي أو الفرنسي، إذ الترجمة العربية مأخوذة عن ترجمة فرنسية) راح يظن أن «الخابيرو» تعني العبرانيين دون أدنى لبس، جاهلاً ما فحواه أن معظم المؤرخين الكبار لا يطابقون بين الخابيرو وبين العبرانيين.

وأما «اليوديم» فلعلها إشارة الى شعب من الشعوب الكثيرة التي تستوطن بلاد الشام أو العراق، أو حتى الأناضول. وليس ثمة ما يؤكد لنا أن اليوديم هم اليهود. ثم هل من المستهجن أن تكون لفظة اليوديم قد دسها أولئك المترجمون الفرنسيون الذين نقلوا اللآلىء من اللغة الكنعانية؟ والذي يشجع المرء على مثل هذا الظن أن المترجمين الفرنسيين كانوا يعملون في مجلة تسمى «المجلة التوراتية»، وهي مجلة تأخذ التوراة بوصفها موضع ثقة.

~~وأما «الشعب الذي يستمد قوته من الشريعة»، فعبارة يصدق عليها ما يصدق على «اليوديم». أقصد أنها قد لا تكون الا عبارة مدسوسة.~~

وأما «الشعب الذي يستمد قوّته من الشريعة»، فعبارة يصدق عليها ما يصدق على «اليوديم»، أقصد أنها قد لا تكون الا عبارة مدسوسة وحسب. فضلاً عن ذلك، فقد كانت ثمة شعوب كثيرة تدعي أنها تستمد قوّتها من الشريعة. ألم يدّع حمورابي أنه تلقى الشريعة من شمش؟ أما كان للآشوريين شريعة أيضاً؟

أما ادعى الفرعون أنه حامي الشريعة والحق والنظام؟ وأما مريام الشمالية فقد غزاها أزيرو حقاً، مدعوماً بالخابيرو وبقوات حثية كذلك. والحقيقة أن كتاب «اللآلىء» يقول هذا الخبر مثلما تقوله رسائل العمارنة. ويضيف الكتاب أن عجلون قد دمرت (وتتحدث التوراة عن حروب قام بها موسى في شرقي الأردن) ومن شأن خبر عجلون هذا أن يؤكد ما فحواه أن الخابيرو وبعدما قاتلوا في جبيل، أو ربما بعدما أسهموا في احتلال الجليل، قد عبروا الى شرقي الاردن فتصدت لهم بعض الدويلات القائمة هناك فحطموها، ثم اقتحموا جبال الضفة الغربية واحتلوا شكيم وحاصروا القدس. هذا الخبر مؤكد ولا ريب فيه. بيد أن التوراة التي تتحدث عن قتال موسى في شرقي الاردن، وعن حروب يشوع في الضفة الغربية، الشيء الذي يكاد أن يتطابق (لولا الكثير من المبالغات) مع اللآلىء ورسائل العمارنة، لا تذكر أبداً أن موسى قد جاء من حوض الفرات أو من سوريا الشمالية، بل من مصر وصحراء سيناء. كما أنها ترجىء زمن موسى الى مائة سنة على الاقل، ما دام قوم موسى قد بنوا مدينة المخازن لرمسيس الثاني. ان «الخروج» المزعوم لا بد أن يكون قد حدث ـ ان هو حدث بالفعل ـ في اواخر عصر رمسيس الثاني، وربما في عصر مرنفتاح وهجمة شعوب البحر على حدود مصر الغربية، والأرجح

أنه قد حدث ـ إن كان قد حدث حقاً ـ في عصر رمسيس الثالث، إبان الفوضى الكبيرة التي أثارتها شعوب البحر في مصر وفي بلاد الشام. ومن المحتمل أن يكون رمسيس الثالث قد جند عبيده، الذين تسميهم المصادر الفرعونية بالعابيرو، ليقاتلوا ضد البلستوفي فلسطين. وربما استغل العابيرو انشغال الفرعون بحروبه الطاحنة التي لم تألفها مصر من قبل الا نادراً، فهربوا من المناجم ومقالع الحجارة والتجأ بعضهم الى الصحراء وعاشوا بين البدو، وهذا ما سمته التوراة بالتيه. وربما قامت في مصر حركة معادية لجميع الأجانب وطردتهم من ربوعها، وكان بينهم هؤلاء العبيد الذين يسمون العابيرو.

واذا ما سلمنا بصحة الادعاء الذي قدمه المترجم (العربي أو الفرنسي) والذي يتلخص في أن كتاب «اللآلىء» يتحدث عن هجوم اليهود على فلسطين في زمن العمارنة، فلا مفر لنا من مواجهة هذا السؤال: كيف قدر لليهود أن يحتلوا فلسطين مرة ثانية على عهد يشوع بن نون في القرن الثالث عشر، أو الثاني عشر(ق.م)؟

يقيناً إن أي احتلال لفلسطين بين نهاية الهكسوس في زمن أحمس وبين وفاة رمسيس الثالث في اواسط القرن الثاني عشر (ق.م) لا يمكن أن يكون قد حدث إلا في زمن أخناتون وزمن ورثته الضعاف الذي انهاهم رمسيس الأول عام ١٣١٨ق.م. أما احتلال الخابيرو لفلسطين في زمن اخناتون فهذا خبر مؤكد موثق ولا يتطرق اليه ريب. ولئن كانت فلسطين قد هوجمت مرة ثانية من خارجها فهذا يعني أنها هوجمت بعد زمن رمسيس الثالث، إذ بدأت السلطة المصرية تضعف وتتراخى، وبالتالي لم يبق ثمة من يدافع عن فلسطين ازاء أي اجتياح كبير.

والآن هل كان اليهود يقاتلون مع أزيرو في بلاد الشام ويرضخون للاستعباد في مصر في الوقت نفسه ؟ إن هذا محال ولا يمكن أن يكون.

ولكن هل اقتحموا فلسطين في زمن اخناتون ثم قاتلهم سيتي الأول وأخذهم عبيداً الى مصر واسترقهم واستخدمهم في المقالع والمناجم؟ إن هذا محتمل، ولكنه ليس اكثر من محتمل وحسب. وربما ظلوا عبيداً في مصر حتى حروب رمسيس الثالث زهاء عام ١١٨٠ق.م، أي ربما ظلوا في مصر قرناً وبعض القرن. وربما استغلوا الاضطراب الكبير الذي حدث في مصر والشام وهربوا الى الصحراء وظلوا فيها حتى وفاة رمسيس الثالث وتراخي الدولة المصرية فانقضوا على فلسطين وفتحوها، أو ربما دخلوها سلماً واختلطوا بالسكان، ثم قويت شوكتهم فاقاموا لهم إمارة صغيرة هناك.

ويخطر بالبال سؤال: هل احتل الخابير و أواسط فلسطين في القرن الرابع عشر، ثم خرج العبرانيون من مصر في القرن الثاني عشر ودخلوا فلسطين سلماً وامتزجوا بالخابير و وصارت لكلا القومين ديانة واحدة، أو ديانتان متقاربتان، واندمج الفريقان في وحدة سياسية ولغوية وثقافية ؟

ثم هذا :

هل كان الخروج المزعوم مجرد فعل من أفعال الاباق الجماعي الذي يقوم به العبيد في بعض الأحيان عندما يجدون الفرصة المواتية ؟ وهل كان موسى نوعاً من سبارتاكوس، أو من صاحب الزنج في التاريخ العباسي ؟

★ ★ ★

لقد وردت في الوثائق الفرعونية أخبار مؤداها أن تحوتمس الثالث قد صادف قبيلة في فلسطين تسمى «ياقوبيل» وأن سيتي الاول ورمسيس

الثاني قد صادفا قبيلة أشيرة في فلسطين.

أما قبيلة «ياقوبيل» التي صادفها تحوتمس الثالث في فلسطين فلا تعني شيئاً، لأن فلسطين قد كانت طوال التاريخ مملوءة بالقبائل البدوية. إن «يعقوب» أو «يعقوب ـ إيل» هو اسم كان واسع الانتشار في أسيا العربية كلها. وليس بالضرورة أن يكون «يعقوب ـ إيل» هو يعقوب التوراة نفسه. وأما أشيرة التي صادفها سيتي الأول ورمسيس الثاني، فهي، من اسمها، قبيلة تعبد الربة عشيرة، أو عشرتا، وهي ربة آمورية كانت تُعبد في شمال سوريا. وسواء أكانت هذه القبيلة تتعبد ليهوا أم لايل، زوج «عشيرة»، فإن في العسير أن يثبت المرء ما فحواه أن تلك القبيلة قد كانت يهودية في ذلك الزمن. وربما اندمجت تلك القبيلة في الثقافة اليهودية بعد ذلك بمدة طويلة.

وقد ورد ذكر العابيرو في برديتين مصريتين ترقيان [٧] الى عهد رمسيس الثاني. أما الاولى فهي رسالة وجهها موظف الى موظف آخر، وقد جاء فيها: «اعط الجنود طعامهم وكذلك العابيرو الذين ينقلون الحجارة لبناء الملك رعمسيس...». والوثيقة الثانية رسالة هي الاخرى، وقد جاء فيها قول كاتبها: «أطعت ما أمرني به سيدي قائلاً: أعط الجنود أرزاقهم والعابيرو الذين ينقلون الحجارة لهيكل الشمس الذي انصرفت اليه عناية رعمسيس..» وقد ورد ذكر هاتين البرديتين في كتاب «العرب واليهود» لأحمد سوسة (ص٥٢٥).

والحقيقة أن هاتين البرديتين لا تؤكدان سوى شيء واحد وهو أن المصريين قد كان لديهم أناس يعملون في نقل الحجارة ويسمون العابيرو، أو «عْبيرو» إن شئنا الدقة.

★ ★ ★

وتبقى جملة من الأسئلة ليست لها أية إجابة يقينية: هل الخابيرو هم العابيرو؟ هل كان اسمهم خابيرو في الهلال الخصيب، ثم صاروا عابيرو في مصر؟ هل أسرهم سيتي الأول أو رمسيس الثاني وجاء بهم الى مصر حين استرقهم واستغلهم في مضمار الاشغال الشاقة؟

ثم هل كان لكتاب التوراة ذاكرة مشوشة بحيث تحدثوا عن القتال الذي خاضه الخابيرو في القرن الرابع عشر قبل أن يدخلوا مصر، وهم يحسبون أنفسهم يتحدثون عن قتال خاضه العابيرو بعد مجيئهم من مصر؟ ألا يمكن لبعد العهد بين الأحداث وبين التدوين أن يكون قد شوش الذاكرة وأدخل في الاحداث ماليس منها ومزج الأزمنة بعضها ببعض؟ وكيف يمكن لموسى أن يكون قد عاش في القرن الثالث عشر (ق.م) بينما يجيء ابراهيم بعد موسى ليعاصر البلستو في القرن الثاني عشر (ق.م) أو في القرن الذي تلاه مباشرة؟

هل كان بين قبائل الخابيرو قبيلة تسمى يوديم؟ وهل كانت تلك القبيلة *أكبر تلك القبائل كلها*، بحيث *صار اسم القبيلة اسماً للحلف* كله، وذلك من باب تسمية الكل باسم الجزء؟

★ ★ ★

وأخيراً، ماذا عن أصالة التوراة؟ ما الذي ابتكره كتابها وما الذي سرقوه من الشعوب الاخرى؟

ثمة في سفر التكوين خبر مفاده أن ابراهيم قد جاء من اور الكلدانيين. واور هذه، وهي مدينة سومرية ترقى الى الألف الثالث (ق.م)، أو ربما الى ما قبل ذلك الزمن بكثير، ما كان لها أن تسمى اور

الكلدانيين الا بعد ظهور الكلدانيين على مسرح التاريخ. وما من تلميذ في هذا العصر الا ويعلم أن الكلدانيين قد ظهروا على مسرح التاريخ في القرن السابع (ق.م). وهذا يعني أن سفر التكوين قد كتب (أو أعيدت كتابته) بعد القرن السابع (ق.م). وثمة إجماع تقريباً على أنه قد كتب على يد عزرا في القرن الخامس (ق.م). وعزرا قد ولد في بابل. وهو مثقف بالثقافة الكلدانية التي ورثت الثقافتين السومرية والأكادية. وعلى هذا الضوء نملك أن نفهم الآثار الواضحة لثقافات العراق الجنوبي على التوراة، وكيف تسربت الأساطير السومرية الى الأسفار «المقدسة».

كثرهم الذين درسوا التوراة بغرض اكتشاف ينابيعها الأصلية، أو بهدف رد عناصرها الكبرى الى ثقافات الشعوب التي احتك بها اليهود. ولقد توصل أصحاب النزعة الموضوعية المتحررين من الخرافة الى أن معظم عناصر التوراة مأخوذة بالدرجة الأولى من الكنعانيين والمصريين وشعوب العراق الجنوبي. ولو كان من اختصاص هذه المقالة أن تبحث في هذا الموضوع لعرضته بالتفصيل أو بالايجاز. ولكن لا بأس ببعض الاشارات.

ثمة شبه بين قصة طفولة موسى (وموسى كلمة هير وغليفية معناها «يولد») وبين قصة طفولة سرجون الأول، وهو الملك الأكادي الذي عاش في القرن الرابع والعشرين (ق.م). وثمة شبه كذلك بين نوح التوراة وبين أوتنابشتيم الذي ترد قصته في ملحمة«جلجامش». والحقيقة أن لهذه الملحمة آثاراً على التوراة جد كثيرة فسفر الجامعة متأثر بها شديد التأثر، وكذلك سفر التكوين الذي أخذ منها مفهومه لجنة عدن.

وفي الفصل الرابع من كتاب «العرب واليهود في التاريخ»، لأحمد

الكاتب

سوسه، يفصل الكتاب كثيراً من آثار الشعوب وثقافاتها على التوراة، ولا سيما آثار السومريين والبابليين والمصريين والكنعانيين. فهو يكتشف في تراث الشعوب العراقية القديمة ما يوازي كلاً من قصة قابيل وهابيل، وطوفان نوح، وقصة يوسف وزليخا، وولادة موسى. التي توازي ولادة سرجون. ثم يقارن بشيء من الدقة والتفصيل بين شريعة التوراة وشريعة حمورابي حمورابي ليكتشف الكثير من الآثار التي خلفها المشترع البابلي على «الكتاب المقدس». كما يكشف أحمد سوسه عن تشابه كبير بين مزامير التوراة وأناشيد أخناتون اللاهوتية، وكذلك عن تشابه يكاد يبلغ حد التماثل بين سفر الأمثال وبين وصايا الحكيم المصري امنمنوبي لابنه.

أما فيليب حتّي، الذي يجعل من «العبرانيين معلمي البشرية من الناحية الأخلاقية»(!)، فيقول في الجزء الأول من «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين»:

«وهنالك مقارنات ومشابهات من حيث اللغة والأفكار بين أدب أوغاريت وسفر أيوب. وتوجد موازنات في شعر اوغاريت كما في الشعر العبري. ومما يستلفت النظر التشابه في المفردات والأفكار والأوزان الشعرية والتركيب الأدبي بين الأدب الأوغاريتي والمزامير العبرانية.» (ص ١٢٤ من الترجمة العربية).

ثم يكشف فيليب حتّي عن توازنات كثيرة بين أدب اوغاريت والأدب التوراتي، لا لزوم لسردها هنا، ولكن لا بأس في اقتباس ما قاله عن المزمور التاسع والعشرين: «وهذا المزمور بكامله من أصل كنعاني ظاهر».

ناصع تماماً أن العبراني قد كان يأخذ ولا يعطي. وهو ينسخ ثقافات الشعوب الأخرى نسخاً من دون تعديل. وحتى ما هو معدل لا يمكن

الثقة بأن كُتاب التوراة هم الذين عدلوه، إذ ربما كانت للنص الواحد نسختان في بلده (ولتكن بابل مثلاً)، أولاهما قديمة والاخرى حديثة معدلة، وربما وقع كُتاب الأسفار على النسخة المعدلة وترجموها الى لغتهم ونسبوها الى ثقافتهم الخاصة.

والصهاينة في الربع الرابع من القرن العشرين لا يتورعون عن أن يفعلوا الشيء نفسه بالضبط: فقد نسبوا الفولكلور الفلسطيني الى أنفسهم دون أدنى خجل. بل إن عاموس كنعان، في رواية له عنوانها «عين جالوت» لا يخجل من أن ينسب الأنفاق التي حفرها الكنعانيون سعياً وراء الماء الى من يسميهم «أجداده العبرانيين».

والحقيقة أن هذه الأنفاق من صنع الكنعانيين الذين لا يبزهم شعب من الشعوب القديمة في مضمار العمل المنتج. وأشهر هذه الأنفاق ذاك الذي في جازر والذي في مجدو. وهناك أنفاق أخرى في القدس وجبعون وأبلعام. ويؤكد المختصون في الآثار أن نفق جازر قد صنع في القرن الثلاثين (ق.م) على وجه التقريب.

هذا هو «العبراني» الذي يأخذ ولا يعطي، والذي لم يخجل الكثيرون من أن يجعلوا منه صاحب رسالة انسانية جليلة، ولكن دون أن يعرف أحد على الأرض ما هو مضمون هذه الرسالة وما أساليبها وغاياتها.

عاشراً ـ ختام

لا ريب في أن مجموعة الأخبار التي عرضتها آنفاً، بعدما اقتطفتها من مصادر شتى، ليس من شأنها أن تشكل تاريخاً، لأنها تفتقر الى التعاقب المتسلسل أو التوالد الداخلي.

ولا بأس في توقف هذه المقالة عند القرن الثاني عشر (ق.م)، وذلك لسببين على الأقل. أما الأول فيتلخص في أن المصادر عن تاريخ فلسطين، تغدو كثيرة نسبياً، إذا ما أراد المرء أن يعرف شيئاً عن فلسطين منذ ذلك القرن حتى اليوم. وأما الثاني فهو أن فلسطين، بل منطقة البحر المتوسط كله، تدخل في طور جديد مع القرن الثاني عشر (ق.م). فقد اندثرت الدولة الحثية، وانحطت مصر، وتراخت بابل أو فترت الى حد بعيد، وبزغ نجم الآشوريين كمحاربين أشداء، أو كأناس يحاولون انشاء أول امبراطورية واسعة في التاريخ. أما الكنعانيون العموريون فقد انتشروا في العالم كله تقريباً، وراحوا يؤسسون المستعمرات والأسواق والمصانع وينشرون الحضارة في كل مكان ويعلمون البشرية فنون السفر في البر والبحر، فضلاً عن الكتابة وروح العمل، ولا سيما العمارة والزراعة والبيع والشراء وادارة المدن وصنع السفن وما الى ذلك من شؤون الحياة البشرية.

ولكن ربما عاد كاتب هذه السطور مرة أخرى فتابع الكتابة عن المسار الفلسطيني منذ القرن الثاني عشر (ق.م) وحتى يوم الناس هذا. وعلى أية حال فإن كتابة التاريخ الفلسطيني وظيفة وطنية لا بد للفلسطينيين من تأديتها ذات يوم من أيام المستقبل القريب أو البعيد. ■

هوامش

١ ـ وقد وردت هذه التسمية في سفر التكوين، ٢٢ : ٢، على هذا النحو «مُريّا».
٢ ـ هذا هو اسمه اليوناني، أما اسمه الفرعوني فهو سنوسنرت.
٣ ـ هذا هو اسمه الفرعوني، أما اسمه اليوناني فهو امنميس.
٤ ـ لكم كان ماني رجلاً عظيماً حين رفض التوراة وأحجم عن الاعتراف بالسمة النبوية لشخصياتها دون استثناء.
٥ ـ وعلى هذا الضوء نملك أن نفهم لماذا قال الرب لابراهيم : «لنسلك اعطي هذه الارض». فالصراع، كما اليوم، يدور على الأرض بكل وضوح.
٦ ـ من الافتئات على الحق أن يزعم أحد بأن «العبرانيين معلمو البشرية من الناحية الأخلاقية»، كما زعم حتي.
٧ ـ لا ريب في أن هاتين البرديتين عظيمتا الأهمية شريطة ألا تكونا من تزويرات الصهيونية وعملائها.

أهم المراجع

١ ـ أسد الأشقر، الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا، الجزء الأول، القسم الاول، منشورات مجلة «فكر»، بيروت ١٩٨١.
٢ ـ عارف باشا العارف، تاريخ القدس، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥١.
٣ ـ ظفر الاسلام خان، تاريخ فلسطين القديم من أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١.

٤ ـ أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، دار العربي، دمشق، الطبعة السادسة، بلا تاريخ.
٥ ـ فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين»، ترجمة الدكتور جورج حداد وعبد الكريم رافق، الجزء الأول، دار الثقافة بيروت ١٩٨٢.
٦ ـ توفيق سليمان، حضارات غرب آسيا القديمة، القسم الأول دار دمشق، دمشق، ١٩٨٥.
٧ ـ ايلي ميلكو، اللآلىء، ترجمة مفيد عرنوق، الطبعة الاولى منشورات مجلة «فكر»، بيروت، ١٩٨٠.
٨ ـ عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٧.
٩ ـ عيسى أسعد، تاريخ حمص، القسم الأول، المنشورات الجامعية، طرابلس، ١٩٨٣.
١٠ ـ سليمان ناجي، زحف الطاعون المزمن، دار النبراس، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٠.
١١ ـ محمد عزة دروزة، العدوان الاسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين وما جاورها، الجزء الأول، دار الكلمة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩.
١٢ ـ التوراة، ولا سيما سفر التكوين وسفر الخروج.
١٣ ـ ادولف ارمان، «ديانة مصر القديمة»، ترجمة الدكتور عبد المنعم ابو بكر والدكتور محمد أنور شكري، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، بلا تاريخ.
١٤ ـ جورج مونتارون، «القدس في فلسطين»، ترجمة فريد جحا، دار طلاس، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
١٥ ـ السير ألن غاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣. ■

فلسطين
في التاريخ القديم

لماذا ينبغي أن نكتب تاريخ فلسطين ؟

لا لكي نثبت ـ كما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى ـ أسبقية الكنعانيين على التوراتيين في فلسطين، إذ ان التوراة نفسها تقر بهذا الأمر. هذا بالاضافة إلى ان البقايا الأثرية تؤكد هذه الحقيقة إلى حد لا يقبل اللبس.

إن علينا، في جوهر الأمر، أن نكتب تاريخ فلسطين لأن الانسان ذاكرة تعنى بماضي الانسان. إذ من شأن التاريخ لمسار شعب من الشعوب أن يرسخ التجانس، ويسهم في انتاج الشعور الكلي الدامج.

فحين يصار إلى تدوين الأزمنة الفلسطينية وأخبار أوقاتها المتباينة، فإن هذه النزعة الأولى تنطوي على دلالة مؤداها أن ثمة في الروح الفلسطيني حنيناً إلى الاستمرار في التاريخ، وتلمساً للطراز الخاص للشخصية الفلسطينية والهوية الفلسطينية، إذ كل تاريخ هو وصف للبهوية الخاصة التي تؤلف المضمون الروحي لشعب من الشعوب

دار منارات للنشر
هاتف ٦٦٣٦٩ ص.ب ٩٢٥٦ عمان ـ الاردن